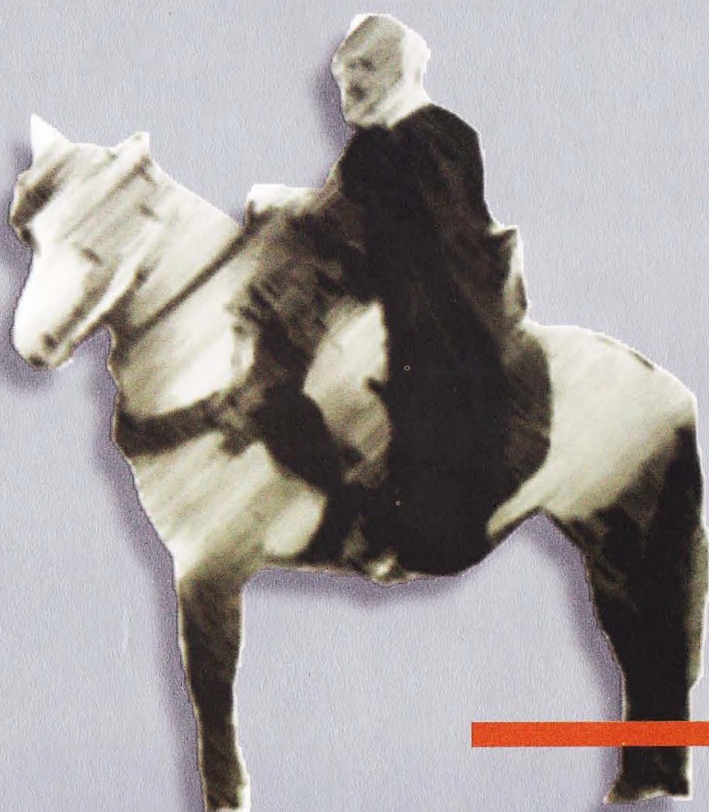
رواية

حنّا مينه

شرف قاطع طريق



دار الآداب

علي مولا

مئة كتاب وكتاب هدية ثورة الشباب.. مشروع "ثورة المعرفة للجميع"

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

شرف قاطع طريق

حنّا مينه

شرف قاطع طريق

رواية

دار الآداب - بيروت

شرف قاطع طريق
حنّا مينه/روائي سوري
الطبعة الثانية عام 2007
ISBN 978-9953-89-005-0
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

المرأة المنبوذة

بعد أربعين عامًا سأعرف اسمها الحقيقيّ، وتأتي المعرفة مصادفة، كأنّما كُتب، في لوح القدر، أن أتألّم من أجلها مرّتين: أولاهما عندما كنت طفلاً في الخامسة من العمر، وثانيهما عندما نيّفت على الخامسة والأربعين! لقد كانت في المرّة الأولى امرأة منبوذة، وكانت في المرّة الثانية امرأة شقيّة، وهي، في الحالين، ضحيّة مجتمع ذكوريّ ظالم، يبرّر للرّجل ما لا يبرَّر، ويعد الأنشوطة للمرأة، التي هي، من كلّ النواحي، محكومة بجرم اقترفه هذا الرّجل بالذات، فناب عنه المجتمع بإصدار حكمه الأقسى من الإعدام!

أذكر، في ما وعت ذاكرة الطفل الذي كنته، أنّ والدي قال لوالدتي ذات يوم:

ـ لا تدعي هذه المرأة تدخل هذا البيت.

قالت الوالدة:

ـ وماذا أفعل إذا طرقت علينا الباب؟

علي مولا

ـ إغلقيه في وجهها!

ـ وإذا لم يكن لها من بيت تأوي إليه؟

ـ لتذهب إلى جهنّم!

ـ ستذهب إلى جهنّم عندما تموت، إذا لم يغفر لها الله، لكنّها الآن حيّة، فماذا تفعل بنفسها؟

ـ وهل أنا مسؤول عنها؟

ـ ألست خالها؟

ـ أنا بريء منها إلى يوم القيامة!

ـ وبماذا أجرمت.

ـ تعرفين جرمها وتتسترّين عليها!؟ أنت، يا بنت. . .

ورنّت صفعة على خدّ الوالدة، خلتها، في خوف الطفل على الأمّ، أنّها رفّت على خدّي، فما كان من الوالد إلّا أن رفع يده ثانية، فانفجرنا، أخواتي وأنا، بالبكاء، وركضت الوالدة إلى المطبخ فاحتمت بداخله، بينما الشتائم في حقّ «جنس حوّاء» تتشظّى وترتطم بجدران البيت!

لم يكن والدي، وسيرته معروفة في روايتي «بقايا صور» و«المستنقع» إلّا رجلاً مدانًا، وكان آخر من يحقّ له أن يدين سواه؛ فقميصه لم يقدّ من دبر بل من نحر، وكان رخوًا إلى حدّ معيب أمام شيئين: الخمرة والمرأة، وهو فاقد الشعور بالمسؤوليّة العائليّة، متبلّد الإحساس إلى درجة لا تصدّق، لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه، ويمكنه أن ينام على رأس

جبل، كما ينام في فراشه البيتيّ، متّخذًا من أيّ حجر وسادة، بسبب من أنّه دائم الترحال، كثير الخيبات في ترحاله، يهجر البيت شهورًا، تاركًا الأسرة فريسة الفقر والجوع والبرد والظلمة، ليعود والندم يقطر من قسمات وجهه، طالبًا من الأمّ الغفران، والأمّ لا تستطيع إلّا أن تغفر، شأنها شأنَ الكثير من الأمّهات في العشرينات من هذا القرن.

ولأنّه حرّم على تلك المرأة، لسبب كنت أجهله، دخول بيتنا، فقد كان محرّمًا على أمّي وأخواتي أن يتكلّمن معها، لذلك ندهتني أمّي، باعتباري الصبيّ الوحيد في العائلة، فأعطتني صرّة طعام ومنديلاً فيه قليل من القضامة، طالبة منّي أن أوصلهما إلى المرأة الجالسة عند تخم الحقل، الذي نخدم فيه كمرابعين، ونربّي دود القزّ الحريريّ.

ذهبت إلى المرأة خائفًا، متذكّرًا الحوار الذي دار بين أبي وأمّي حولها، ناسجًا في خيالي الطفوليّ شكلاً بشعًا لثيابها، راسمًا صورة قبيحة لها، معتزمًا أن أعطيها الطعام وأهرب عائدًا إلى البيت، لكنّ المرأة ابتسمت لي، مسّت شعري براحتها، أجلستني في حضنها وراحت تبكي، دون أن تمدّ يدًا إلى الطعام، هي الجائعة جدًّا، كما تصوّرت من المهمّة الصغيرة شبه السرّيّة، التي كلّفتني أمّي بها.

كان شكلها غير بشع، ثيابها غير قبيحة، وجهها لطيف أنيس. كانت، بكلمة، تشبه أمّي أو أيّ امرأة أخرى أعرفها في الجوار، أو بين النساء الأقارب اللّواتي يزرننا، وبدلاً من الهرب منها أنست بها، أشفقت عليها، أجبت بصدق على كلّ سؤال وجّهته

إليّ، إلّا أنّني ارتبكت عندما سألتني ماذا قال والدي لوالدتي بشأنها، ولأنّني لزمت الصمت، أدركت المرأة أنّ والدي لا يريدها في بيتنا، وهو الذي منع أمّي وأخواتي من المجيء إليها، أو التحدّث معها. وكموقف احتجاجيّ، لم أفهمه تمامًا آنذاك، رفضت المرأة الطعام مكتفية بأكل حبّات القضامة.

عندما سأكبر، ويصبح في وسعي تفهّم الأمور على نحو مقبول، ستقصّ عليّ الوالدة قصّة تلك المرأة في مدينة السويديّة، وأعرف أنّ اسمها كاترين، وكانت تسكن في حقل مجاور لحقلنا، وأنّها تعرّضت ذات ليلة لعمليّة اغتصاب، في غياب زوجها المسافر إلى أنطاكية.

فقد اقتحم لصوص بيتها مروّعينها مع طفليها، ولم يكتفوا بالسرقة، بل جرّوها إلى المطبخ، وهناك اغتصبوها. ولشدّة صراخها، مستغيثة بالجيران، هرع إليها بعضهم مسلّحين ببنادق الصّيد أو العصي، محاولين عبثًا القبض على اللّصوص الذين سرقوا بعض الأغراض، واعتدوا على عرض صاحبة البيت، من دون أن تتمكّن من صدّهم أو مقاومتهم، أو معرفة الجهة التي هربوا إليها بعد خروجهم من البيت، واستبطان الظلمة الدامسة.

الزوج، بعد عودته من أنطاكية، أدان الزوجة، طردها من البيت، اتّهمها بالزنى، وبأنّها هي التي في غيابه سرّبت خبرًا للمعتدين عليها، بأنّ زوجها غائب في سفر لن يعود منه إلّا في اليوم التالي... كاترين روت الحادث كما وقع، أقسمت أنّها قاومت مغتصبيها ما استطاعت المقاومة. أرت الزوج، وكذلك بعض النسوة من الجيران، أثار العنف الذي استخدمه

المعتدون، والكدمات على جسدها وهي تقاوم للإفلات والهرب، إلّا أنّ الزوج «الغيور» على شرفه، المنافح عن عرضه، اختار الطريقى الأسهل لغسل العار الذي لحق به، فلم يذبح الزوجة «الخائنة» كما هو العرف، ولم يصل الضرب المبرح الذي أنزله بها حدّ إماتتها، لذلك طلّقها دون الرجوع إلى المحكمة الروحيّة، معلنًا، بغير قليل من الاعتداد والتباهي، أنّه لا يقبل مهما كلّفه ذلك أن تبقى «امرأة عائبة» في بيته!

كان على والدي أن يدافع عن قريبته، أن يرفع الصوت احتجاجًا على ما أوقعه الزوج بها من ضرب وعُسُف، أن يقف إلى جانبها لرفع الظلم النازل بها، أن يقول للنّاس إنّ كاترين بريئة، لأنّها لو كانت متواطئة لما صرخت، ولتمّ كلّ شيء في الخفاء، غير أنّ الوالد أخذته العزّة في الإثم، تصرّف كذكر في مجتمع ذكوريّ، شعاره «إذا لم تضرب المرأة اضرب خيالها!» و«أعوذ بالله من جنس النساء!»و«كيد الرّجال هدّ الجبال وكيد النّساء هدّ الرّجال!» إلى آخر مجموعة الأمثال التي وضعتها رجعيّة الأفكار لصالح الرّجل، عنترة زمانه!

الجيران انقسموا إلى فئتين: الأكثريّة التي وقفت ضدّ المرأة، مؤيّدة تصرّف زوجها «الشريف»، مبرّرة ضربه الزوجة حدّ الموت، طردها من البيت، دون أن تشفع لديهم دموع طفليها، دون أن يهتموا بدفاعها عن نفسها؛ والأقلّيّة المؤلّفة من رجل أو اثنين، ومن امرأة أو أكثر، التي حاولت بالنصح دفع الأذى، تحنين قلب الزوج رحمة بولديه، إفهامه، بما في المنطق من ترجيح كفّة العقل، أن امرأته ليست عائبة، وأنّها

اغتصبت بالقوّة، وأنّ الرّجال عاجزون عن مقاومة اللصوص وقطّاع الطرق، فكيف بامرأة عزلاء، وحيدة، في بيت ضائع بين حقول التوت، وأنّ هذه المرأة غير متواطئة وإلّا ما قاومت، ما صرخت، ما تعرّضت للعنف البادي على جسدها!

الزمن كان إلى جانب الزوج، العشرينات من هذا القرن كانت موبوءة بالجهل، بالتخلّف، بالظلم الاجتماعيّ، وكانت السيادة المطلقة للرّجل، وكان الرّجال، كما هم، أو بعضهم، الآن، من الذين يبيحون لأنفسهم ارتكاب المحرّمات، والويل كلّ الويل لزوجاتهم إذا رفعن الصوت، أو احتججن على ظلم الأزواج، لأنّ مصيرهنّ الطلاق، أقلّه طرد من البيت، أو الهجر عند الذين يعدّون أنفسهم من المتنوّرين أو الرحماء.

* * *

بعد أربعين عامًا سيكتب لي، وكنت حلّاقًا في اللّاذقيّة، أن أرى كاترين هذه، حين جاءت إلى بيتنا ناشدة الرّحمة من أمّي، قائلة إنّها لا تريد شيئًا سوى أن تغفر لها عائلتها، أن تقبل توبتها حتّى لو كانت خاطئة، أن تراعي ظروفها السيّئة، الحضيضيّة، الشقيّة شقاء أسود، أن تسمح لها أمّها، وهي قريبة والدي، أن تزورها، أن تقبّلها، أن تقبّل يديها، قدميها، ترضى عنها، تتيح لها فرصة الكلام معها، أو رؤية ولديها عن طريقها، وبذلك تموت، هي الخادم في بيوت الناس، مرتاحة، وتدفن بشيء من كرامة كما كلّ الأحياء، كما كلّ الذين أخطأوا وتابوا.

والدي بقي، عقليًّا، في مستنقع مفاهيم العشرينات، رفض استقبال كاترين في بيتنا. أمّها، بضغط من أولادها، وضعت في

صدرها حجرًا بدل القلب، حرّمت على ابنتها أن تعتّب منزلها، بله أن ترى وجهها. الآن جاء دوري، أنا الحلّاق الذي يتعلّم الكتابة برسائل الجيران، وكتابة العرائض إلى البلديّة، والمحافظة، والحكومة أحيانًا، مطالبًا بإصلاح الطرقات، تبليط الأرصفة، العناية بالنظافة، الإفراج عن سجناء الرّأي، كفالة الحرّيات كما نصّ الدستور، إلى آخر هذه المطالب التي تدخل في العمل السياسيّ، وذلك بعد التنقّل بين سجون اللّاذقيّة، عقابًا لي على مقاومة الاحتلال الفرنسيّ، أقول: جاء دوري لأكفّ الأذى عن كاترين، وأفسح لها في المجال كي تأتي إلينا، وأن تشعر بدفء المحبّة بيننا، وتأنس بالحديث معنا، مستشعرة نعمة العودة، ولو بشكل ما، إلى العائلة التي رجمتها.

وقد ازدادت، هذه المرأة المنبوذة، اطمئنانًا ومسرّة، يومًا بعد يوم، وفرحة بما آل إليه حالها، وبعودتها، هي النعجة التي اعتبرت ظلمًا ضالّة، إلى القطيع البشريّ، معتبرة ذلك مكافأة من السماء على شقائها وصبرها الطويلين، وردًّا للاعتبار كأنّما مُنحت صكّ براءة، وبلغ فرحها حدّه الأقصى عندما دبّرت لها عملاً في إدارة حصر التبغ، ومساعدتها على استئجار غرفة قريبة من بيتنا.

وإذا كان القدر، الذي تربّص بها طويلاً، قد عاجلها بالموت بعد ذلك بعام ونيف، فإنّها على كلّ حال ماتت هانئة، مطمئنّة، راضية بما كتب لها، وكنت أنا، في الوضع الذي هي فيه، من أسهم في تهيئة قبر لها، وتشييع لا بأس به يليق بها، ومن تقبّل التعازي برحيلها عن دنيانا.

الخال برهوم... ولصوص الأمير

شجاعة القلب، في ذلك الزمان، كانت تقترن بالمغامرة، أنت قاتل أو مقتول، لذلك لا تعرف هل تصبح أم تمسي، هل تعود على قدميك أم جثّة في شوال على ظهر حمار؟ كان الخال برهوم يعرف هذه الحقيقة، ويعرف أيضًا أنّه ليس من طبع الليالي الأمان، مع أنّه يعرف قُطّاع الطرق، إذا لم يكن واحدًا واحدًا، فمجموعة مجموعة، إلّا أنّه يأمن لقاطع طريق، فردًا كان أم جماعة؛ ففي ذلك الوقت، أي في العشرينات من هذا القرن، كانت المافيات بدائيّة، عشوائيّة، لا تقوم على تنظيم، وليس لها أموال تغسلها في مشاريع وهميّة، ولا يشبه رؤساء قُطّاع الطرق رؤساء المافيات، من حيث القدرة على البطش، كما هي الحال اليوم، والشقاوة التي كانت تتراوح، بين حدّي القوس، من سرقة البيوت أو المواشي، أو اغتصاب النساء، إلى القتل خلال السرقة، أو عند سلب الناس ما يحملون من بضائع ناحلة، وهم يقطعون الطريق بين السويديّة وبين أنطاكية مشيًا على الأقدام، أو على ظهور البغال والحمير، والخيل نادرًا!

بدعة «الحرّاس الشخصيين» نشأت، أغلب الظنّ، في بلدتنا

علي مولا

السويديّة، وفي ما شابهها من بلدات ومدن صغيرة، في أنحاء مختلفة من سورية؛ وكان الحارس الشخصي موظّفًا عند هذا أو ذاك من الأمراء، الأصحّ الوجهاء الذين يلقّبون، مجازًا، بالأمراء، وهم من الإقطاعيين الذين ورثوا بعض الأراضي والبساتين والبيوت من أجدادهم وآبائهم، ثمّ أضافوا إليها، بقوّة النفوذ، أو قوّة السلاح، ما استطاعوا اغتصابه من الفقراء. وحرّاسهم الشخصيّون لم يكونوا يشبهون حرّاس مارلين مونرو، أو بريجيت باردو، أو محمّد الفايد، أو حتّى فيفي عبده وأحمد عثمان وليلى علوي، كان هؤلاء الحرّاس أشبه بالخفراء في صعيد مصر، سلاحهم الجفت أو السكّين أو النَّبُّوت، وعملهم السهر على «القصور» والحدائق، والأبقار، والخيول، وكلّ أنواع الحيوانات الأليفة، هذا في العلن، أمّا في السرّ فإنّ عملهم كان الاعتداء على أملاك الفقراء، وقضم الخصب، المرويّ، من أجزائها، وضمّهم بالقوّة، أو بثمن بخس، إلى أملاك الذي يحرسونه.

الخال برهوم، وكان نسيبًا لأمّي، شذّ عن هذه القاعدة، لم يقبل أن يكون جفتًا أو طبنجة أو نبوتًا أو سكّينًا أو عصًا عند أحد من هؤلاء الأغوات، اشتغل لحسابه الخاصّ، فقد كان، في شبابه، قاطعَ طريق متمرّسًا، شرسًا، لا يهاب الموت، تعرّف، خلال «مهنته» غير المحترمة، إلى أكثر قطّاع الطرق دمويّة، تجرّأ عليهم، تبادل إطلاق النار معهم، قتلهم، أو علّم عليهم بالجروح؛ ومع الأيّام صارت له جماعة، يدين أفرادها له بالطاعة، والويل لمن يتمرّد عليه، أو حتّى يرفع الصوت في وجهه. ورغم هذه القسوة، الناشئة عن قوّته البدنيّة، وعن

إحكامه التصويب بكلّ أنواع الأسلحة، فقد كان محبوبًا، مهابًا، ممدوحًا من الفقراء، مذمومًا من الأثرياء، شبيهًا بالخارج على القانون المسمّى شاهين في مصياف، والياس الحلبي في بيروت، وفؤاد علامة في وادي القرن، بين الحدود السوريّة اللبنانيّة الآن.. هؤلاء، وأمثالهم، الذين هم ضدّ الحكومة، لسبب من الأسباب، خرجوا على القوانين فحكموا بالإعدام، ولم يكن لهم بدّ من اللجوء إلى الجبال والغابات، والتربّص في الوديان، وعند المنعطفات الخطيرة، لرجال الدّرك، أو للمسافرين، يُشلِّحون الأغنياء ويعطون للفقراء، ويهبون، بدافع الشرف والنخوة، لأخذ حقّ المظلوم من ظالمه، حيثما أمكن ذلك.

جماعة الخال برهوم، وحتّى هو نفسه، لم يخرجوا على القانون، لسبب بسيط هو أنّ القوانين لم تكن موجودة، فقد انقشع، كما الغيم الأسود أمام الرّيح، حكم العثمانيين عن سورية، ولم يتسنّ بعد للاحتلال الفرنسيّ أن يثبّت قدميه، لهذا فإنّ الفترة الانتقاليّة دامت سنوات طوالاً، وفي هذه السنوات برز «الحكم العادل» للخال برهوم وجماعته، وفق نظام محدّد، فيه لاءات ضدّ السرقة، ضدّ اغتصاب النساء، ضدّ الاعتداء على الفقراء، ضدّ ذبح مواشي المرابعين عند أصحاب حقول التوت وتربية دود الحرير، أو القزّ اختصارًا.

مع استواء الرّجولة، تاب الخال برهوم عن قطع الطّرق على المسافرين، صار أشهر من يحرس هؤلاء المسافرين من قُطّاع الطّرق، أفضل من يعيد المسروقات والمنهوبات إلى أصحابها

الفقراء، أي بكلمة، صار، بلغة اليوم، حارسًا شخصيًّا، يعمل لحسابه الخاصّ وفق الوجدان والضمير، ويكفي أن يصل الخبر إلى قاطعي الطّرق، أو اللّصوص، أنّ برهوم زكّور يحرس هذه القافلة أو تلك، يبسط حمايته على هذا الحقل أو ذاك، يمنع سرقة بعض منازل أجراء الأرض، حتّى يكفّ المعتدون واللّصوص عن الاقتراب منها، أو يدفعوا الثمن غاليًا، يصل إلى حدّ قتلهم جهارًا نهارًا.

أمّي، مريانا ميخائيل زكّور، وقصّتها معروفة في رواية «بقايا صور» كانت يتيمة الوالدين، مات أخوها رزق الله زكّور، إثر ذبحة صدريّة في سفر بر، ضاعت أختها ماري في بلاد اليونان. أصبحت «مقطوعة من شجرة» كما يقال، عذّبها والدي بترحاله الدائم، بغيابه لشهور لا تدري أين، بتركها، ونحن معها، في حقل ناءٍ في السويديّة، فريسة للخوف والجوع والبرد والظلمة، بانقطاع أخباره حتّى ظنّت وظننا أنّه فقد ولن يعود أبدًا؛ وزاد في شقاء الأمّ، أنّ «باصوص الأمير»، وهو أحد الأغوات، اغتصب لها قطعة أرض صغيرة كانت تملكها، فلمّا راجعته بأمرها أنكر، ادّعى أنّ الأرض له، وأنّها مطوّبة على اسمه، آمرًا أزلامه بطردها، فعادت إلى البيت خائبة باكية، هي التي كان الدّمع كلّ سلاحها، وكلّ وسيلة التعبير عن شقائها الذي لا يصدّق.

في أحد أيّام الرّبيع، مطلع العشرينات، جاءت جارة قويّة، شجاعة، محسنة، إلى الأمّ وسألتها:

ـ ماذا يكون برهوم زكّور بالنّسبة إليك؟

فكّرت الأمّ، وقالت:

ـ ابن عمّ والدتي.

ـ وهل تعرفينه؟

ـ لا أعرفه ولا يعرفني!

قالت الجارة:

ـ مع ذلك الدمّ يحنّ يا مريانا، هو وحده من يستخلص لك الأرض من «باصوص الأمير».

ـ هذا إذا اعترف برهوم بي، أو تذكّر القرابة التي بيننا!

ـ جرّبي! لن تخسري شيئًا يا مريانا.. برهوم هذا أبو الفقراء كما يقولون عنه.

ـ وأين يسكن؟

ـ في حارة اللوشيّة.

ـ ومن يأخذني إليه؟

ضربت الجارة على صدرها وقالت:

ـ أنا!

أضافت:

ـ خذي ابنك حنّا معك، فإذا رآه رقّ قلبه.

ـ لكنّه ابني الوحيد، وصحّته كما تعرفين، فمن يحمله إلى اللوشيّة؟

عادت الجارة تضرب على صدرها قائلة:

ـ أنا!

المهمّ أنّنا ذهبنا: الأمّ، الجارة، وأنا، وكي أفرح أمّي قليلاً، أصررت على المشي، تابعت المشي إلى منتصف الطريق، بعد ذلك حملتني الجارة قليلاً على ظهرها، ومرّة أخرى، بعد استراحة قصيرة، نزلت ومشيت.. وفي اللوشيّة سألنا عن بيت برهوم زكّور، تقودنا الجارة، بينما قلب الأمّ، كما قالت لنا في طريق العودة، كان يخفق من خوف وحرج، إلّا أنّ أصحاب النخوة، من محبّي الخال، تطوّعوا لإرشادنا إليه، متسائلين بمودّة: «من نحن؟ وماذا نريد؟ وتفضّلوا استريحوا عندنا، وكلّ البيوت بيت الخال»، الأمر الذي طمأن والدتي، فاعتذرت مرتبكة، شاكرة دعواتهم، مصرّة على الوصول إلى بيته رأسًا.

استقبلتنا زوجته حسنيّة، من دون أن تسأل من نحن، ففي شرع الخال لا يُسأل الضيف حتّى يستريح، حتّى يشرب الماء البارد مع القهوة، حتّى يزول ارتباكه، يطمئنّ، يحكي قصّته على مهل، مهما تكن موجعة، بعدها يطلب ما يريد، يقترح ما يشاء. والخال صريح، يجيب صاحب الشكوى بصدق، باستقامة، يقول له: «معك، أو ليس معك، حقّ!» «شغلتك تصير أو لا تصير!» ينهض، بعد الطعام، معه، أو يطلب منه أن يعود في الموعد الذي يحدّده له، وفي حال العجز عن التلبية، لا يكسر خاطر المحتاج، يجبره من عنده، من بيته، أو من كيسه إذا استطاع.

الأمّ البكّاءة، المسكينة، المغلوبة أكثر الأحيان على أمرها،

شرعت تحكي قصّتها وهي تبكي. حسنيّة الطيّبة، المحافظة على بقيّة من ملاحة، كادت تبكي لبكاء الأمّ، منذ أن عرفت من هي، ندهت زوجها برهوم من الحقل، قالت له: «بنت أختك عندنا!» جاء مسرعًا، سلّم، رحّب، هدّأ من روع الأمّ، سألها من تكون، من أبوها وأمّها، ولمّا علم بقصّتها ضرب على رأسه، قال لها: «بسيطة يا مريانا، يا بنت أختي، امسحي دموعك، لا كنت على قيد الحياة، أنا خالك، أن يعتدي باصوص أو غيره على حقّك، أن يغتصب أرضك، وأنا حيّ... وهذا الصغير ابنك الوحيد؟ يا الله كم هو نحيل! وزوجك، سليم مينه، يتركك لكلّ هذا الشقاء ويرحل... يا حسنيّة! يا أمّ طنّوس! الدزكة... العرق... النبيذ... الطعام، عجّلي، وأنت يا جارة، يا فاعلة الخير، كيف أشكرك؟ لا تقولي: العفو! أنت، أيضًا، قريبة برهوم، والبيت بيتك.. العمى! وصلت مع باصوص إلى هذا الحدّ!؟ يعتدي على أرض بنت أختك يا برهوم ولا يحسب حسابك!؟ لكنّه لا يعرف، معذور لأنّه لا يعرف. مع ذلك.. مع ذلك.. الاعتداء على الناس غير مقبول؛ لا من باصوص ولا من الوالي.. لكنّك، يا برهوم، لا تستطيع، وحدك، منع عدوان الأقوياء على الضعفاء، وهذا مؤسف.. في صحّتكم.. تفضّلوا.. خذوا حرّيّتكم.. أرضك، يا مريانا، ستعود، وهذا شاربي!».

قال ذلك وأمسك شاربه. قالت زوجته: «حاجتك مقضيّة، إن شاء الله، يا مريانا، لا تخافي، اشربي قليلاً، نبيذنا شغل يدنا، نبيذ بيتيّ، معتّق، حلو، وأنت يا جارة تفضّلين العرق؟ ألف صحّة، أنت أخت الرّجال، وبرهوم أخوك..».

شعرت، منذ تلك اللّحظة، بحبّ طفوليّ غامر لخالي برهوم، لا لكونه خالي، بل لأنّه رجل وقويّ وشجاع، ولا يخاف باصوص أو الوالي، وأحسب أن حبّ الرّجال، عبادة الرّجولة، تقديس الشجاعة، كلّ ذلك قد تملّكني، وأنّه جرى بفرح في عروقي، وامتزج بالدمّ في شراييني!

حوالى العصر، قال الخال برهوم لأمّي:

ـ قومي معي لعند باصوص.

كان يصرّ رأسه بزنّار حريريّ معرّق بالأسود والأبيض، وفي كتفه بندقيّته الإبراهيميّة، وبيده عصا غليظة صقيلة، لها طربوش من الفضّة، وبعد أن نفض إلية شرواله عدّة مرّات، فتل شاربيه، وسار.. وأمّي وراءه.

غابا ساعة، أو وقتًا خلته طويلاً، مع أنّه لم يكن طويلاً في الواقع، وعندما عادت الأمّ كانت مرتاحة الوجه، منبسطة الأسارير، قريرة العين، وفي منديلها سبع مجيديّات، هي ثمن الأرض الصغيرة جدًّا التي اشتراها باصوص، نزولاً عند طلب الخال، وعلى ذلك تمّ الصلح.. إلّا أنّ الخال لم يكن راضيًا تمامًا.. كان يريد الأرض، هذه التي يحبّها، لا ثمنها، إلّا أنّ الأمّ ارتضت الثمن، بعد رفعه من خمس إلى سبع مجيديّات.

وعند وداعنا، حمّلنا الخال من بيته ببعض ما نحتاج من مؤونة، وقدّم للجارة، كهديّة، زجاجة من العرق قائلاً لها وهو يبتسم: «من مشروبي الخاصّ، يا جارة!»؛ وطلب من شابيّن أن يرافقانا إلى بيتنا، بعد أن أركبني فرسه التي تحمل عطاياه!

وقبل أن نبتعد، ضرب الأرض بعصاه، وقال بصوت عال سمعه الجميع:

ـ يا مريانا، يا بنت أختي، تذكّري أنّ خالك اسمه برهوم زكّور. . . وهذا يكفي!

وفعلاً كان يكفي!

المختار والأخت الرهينة!

لوعة قلب الأمّ على أولادها لا تفوقها لوعة، وقد شهدت، وأنا طفل، لوعة قلب أمّي المسكينة على أختي الرّهينة في بيت مختار السويديّة الياس يوسف حجازي! في ذلك اليوم، من عشرينات القرن العشرين، كان الفقير فقيرًا في كلّ شيء، كان بائسًا إلى آخر حدود البؤس، شقيًّا شقاء أسود، ويشاء القدر أن تكون عائلتي أفقر عائلة في حقول التوت المترامية، التي يعيش المرابعون فيها على تربية دود القزّ، أو دود الحرير، وأن يكون الحقل الذي نسكنه ملكًا للمختار حجازي، الظالم بغير رحمة، المرابي بغير ذمّة، الموسوس قهريًّا حدّ الجنون!

إنّ ظلمة الحقل المقفر، في الشتاء خصوصًا، ليست الظلمة التي في أغاني فيروز، واللصوص أو الحرامية ليسوا برومانتيكيّة الحرامي في مسرحيّات مطربتنا الكبيرة، التي أطلق عليها يومًا الشاعر الأكبر (كما يريد أن يسمّي نفسه!) سعيد عقل، لقب سفيرتنا إلى النجوم، وكانت ولا تزال نجمة السفراء، في زمن صار فيه السفراء نجومًا من نوع آخر، ليست هي، على كلّ حال، النجوم المعلّقة كالقناديل في السماء، والتي تشتعل

وتتغامز في القبّة الزرقاء، في ليالي الصيف، فتسهر الأرض على ضوء شموعها البعيدة آلاف السنوات الضوئيّة.

كانت الظلمة في حقل التوت مخيفة، ملأى بالأسرار والأشباح، نراها مرعبة ونحن أيقاظ في الشتاء، ونراها كوابيس ونحن نيام، وتظلّ الأمّ ساهرة مسهدة، تصغي برهافة السمع إلى معزوفة الرّيح المجنونة في الخارج، تبعث الرهبة في نفسها الواجفة المتوقّعة، في كلّ لحظة، أن يخلع اللصوص الباب، أو النافذة، أو السقف، أو ينقبوا الجدران، ويستولوا على ما في البيت حتّى من أرغفة خبز يابسة.

ويزداد خوف الأمّ حتّى يصبح هوسًا حين يكون الأب غائبًا، والأب يغيب في رحلات لا تنتهي، لا ندري أين، أو نشكّ في أن تكون في طلب الرزق، على نحو ما يرحل الآباء في بعض الأسر الأخرى، الفقيرة جدًّا مثلنا. وعندما كان يعود هذا الأب الخائب، لا تسأله الأمّ فورًا عن غيابه الطويل، وعمّا وقع له في سفره، فهي تعرف أنّه سيشتم، وسيقول لها: «اعترضي على حكمة الله»، ثمّ يسكتها بنزق عصبيّ تعرفه وتخشاه!

كان المختار حجازي، بالنّسبة إلينا نحن الأجراء عنده، هو الآغا وهو الحاكم، وهو الآمر الناهي، وهو، فوق ذلك، الذي يعطينا اللّقمة دينًا في الشتاء، على حساب موسم القزّ في الصيف، فإذا امتنع عن إعطائنا الطحين والزيت والملح والكاز، دينًا وعلى الموسم، بسبب تراكم الديون علينا، كانت الأمّ تذهب إليه باكية راجية متوسّلة، متضرّعة أن يعطينا ولو قليلاً من الطحين لأجل الرغيف، وحتّى «لا يموت الأولاد

جوعًا!» ريثما يعود الأب، فيصيح بها المختار: «اللّعنة عليك وعليه، أنت امرأة تافهة، وهو رجل أتفه.. أريد تسديد الديون، وإلّا جرجرتك أنت وأولادك إلى السجن!»، وعندئذ كانت ترتمي الأمّ على قدميه صارخة: «دخيلك يا مختار! دخيلك يا معلّمي، أنا امرأة مسكينة، وأولادي صغار، وزوجي غائب، ونحتاج إلى ما نأكل، فلا تهدّدني بالسجن، بل تكرّم، الله يستر حريمك، ويوفّقك، ويبقيك على رأسنا، تكرّم واعطني ما نقتات به ولو لبضعة أيّام!»، فلا يكون من المختار إلّا أن يركلها بقدمه، أو يدفعها في صدرها بقبضة يده، فترتمي في الوحل أمام الدكّان، وهي تذرف الدّمع وتستجير بالله والأنبياء.

المختار حجازي، المرابي بجشع، الظالم بغير قلب، كان موسوسًا، يخشى على نفسه من المرض والموت، لذلك يطبخ طعامه بنفسه خشية أن يدسّ أحد فيه السمّ، ويغسل ثيابه بيديه حرصًا على النظافة، وينام في فراشه مستندًا إلى الجدار، خوفًا على ماله الذي تحت وسادته، أن يختلسه أحد، أو يقدم أحد على خنقه وهو نائم ويستولي على ماله ومستنداته ودفاتر ديونه على المرابعين والناس أجمعين.

بخلافه، كانت زوجته كريمة، هذه الكريمة يدًا ولسانًا، والتي كانت على نقيضه تمامًا، فهي تستقبل الأمّ، وتتحسّن عليها، وتعطيها بعض الطعام بغياب زوجها في اللوشيّة (مركز البلدة) وتسألها عن حالها وأولادها وزوجها، وكان جواب الأمّ الدّمع، كأنّما حكم الزمن القاسي نذرها لذرفه في كل وقت، بسبب من أنّها مظلومة، مهدّدة في كلّ وقت، ولم تكن زوجة

المختار هذه تدري، وهي تطلب من الأمّ إحضار ابنتها البكر معها، بناء على طلب زوجها المحتال، أنّ البنت، أختي، ستوضع في قبو بيت المختار رهينة إلى أن تسدّد الأمّ الدّين، والأمّ لا تملك من الدنيا وفيها، ما تشتري به فستانًا لها، أو طعامًا لأولادها.

المهمّ أنّ الأمّ، بطيبة قلبها، أخذت الأخت البكر لتخدم في بيت المختار، سدادًا لبعض الدين، فإذا المختار يحبسها في القبو بين الماشية، ويعتبرها رهينة إلى أن يستوفي دينه، والأمّ تركع أمامه على ركبتيها، كما تفعل أمام صورة العذراء، طالبة منه بالدّمع والدعاء أن يعيد إليها ابنتها، لأنّه لا يعقل أن تبقى سجينة، رهينة، إلى الموسم في آخر الصيف، والمختار يتفّ عليها، ينتهرها، يشتمها، يهدّدها، غير آبه بعذابها، بلوعتها، بتضرّعها الناشج وهي تطلب الرحمة والعون من السماء.

الجارة الأرمل، القويّة، الشجاعة، علمت بأنّ المختار حجازي أخذ الأخت رهينة، صعب الأمر عليها، وجدت نفسها في حيرة: تترك الأمّ تبكي في فضاء الصّمت من حولها، أم تذهب إلى المختار وتطالب بإطلاق سراح البنت، والصبر على العائلة الفقيرة إلى حين الموسم؟ كان الوضع معقّدًا، فهي أرمل، وهي مدينة أيضًا للمختار، ولو ذهبت إليه لتعاركت معه، وربّما ضربته ودخلت السّجن، وعندئذ تبقى البنت رهينة، وتضيع هي!

الأفضل، قالت للوالدة، أن نذهب إلى الخال برهوم، لأنّه وحده، من بين رجال بلدة السويديّة، من يستطيع أن يحلّ

المشكلة. . بكت الأمّ العاجزة، وجدت من غير اللّائق أن تحمّل خالها برهوم كلّ متاعبها، إلّا أنّ الجارة هوّنت عليها الأمر، قالت لها بتصميم: «إذا لم تذهبي إليه معي ذهبت وحدي. . اذهبي ولا تتكلّمي، دعيني أشرح له الموضوع بنفسي!».

وافقت الأمّ على مضض، كانت تعرف أنّها ستبكي، وأنّها غير قادرة، سوى بدمعها، أن تفصح عن المصاب الذي حلّ بها، وأنّ الجارة ستنوب عنها، مدركة على نحو يقيني أنّ خالها برهوم سيهبّ لنجدتها، إلّا أنّها خافت أن يقتل المختار، وأن تقع جريمة يذهب، هو الخال العزيز عليها، ضحيّتها، من دون أن تستفيد شيئًا، فالمختار مسلّح، وعنده رجال مسلّحون، والحكومة معه، ومهما تكن شجاعة الخال برهوم، وهيبته، وسطوته، فإنّ المختار سيعاند ولن يتراجع، وقد يضطر الخال إلى تسديد الدّين عنها مقابل استعادة ابنتها، فما العمل!؟

طنّ السؤال في أذنيها، دوّى في فراغ خوفها وبؤسها، إلّا أنّها، وهي عند الخال، والجارة تشرح الوضع، عرفت الأمّ الطمأنينة من خلال جواب بسيط، ذي كلمة واحدة: «بسيطة!» قالها الخال ونهض إلى بندقيّته الإبراهيميّة المعلّقة على الجدار، تقلّدها وقال للأمّ والجارة:

ـ تعالا معي؟

قالت الأمّ:

ـ إلى أين!؟

ـ إلى المختار طبعًا!

ـ لماذا لا نشكوه إلى الحكومة؟

زعق الخال برهوم:

ـ حكومة!؟ أيّ حكومة هذه؟ وهل هناك حكومة!؟ تعالي ولا تخافي، العمى! مع خالك برهوم وتخافين!؟

ـ أخاف أن تقتله!

ـ هذا الجبان؟ لا! ما حزرت، تعالي.

ذهبت الأمّ والجارة مع الخال برهوم إلى المختار، كانت خائفة ترتعد كأنّ بها برداء، وكانت تمسك دمعها بصعوبة، لأنّ خالها لا يحبّ أن يرى أحدًا يبكي، غير أنّها سألت:

ـ ماذا أقول للمختار؟

ـ لا تقولي شيئًا.

ـ والبنت؟

ـ سنرى.

ـ آه يا ربّي، المختار ابن حرام، وأنا خائفة!

سألها:

ـ تخافين عليّ أم على البنت يا مريم؟

تقدّمها، والأمّ صامتة، إلى بيت المختار. كانت البندقيّة في كتفه وبيده عصا، وهيكله يتقوّس في أعلى الجذع، وعيناه تبرقان، ترزان غضبًا ناريًّا.. وعندما رآه المختار توجّس شرًّا، خاف منه رغم قسوته وجبروته، ولم يقل الخال برهوم شيئًا، لم

يشتم، لم يضرب، لم يرفع صوته.. قرفص في باحة بيت المختار والبندقيّة في حضنه، راح يلفّ سيكارة بغير عجلة، قال لحارس المختار بلطف:

ـ سلّم على الخواجة الياس وقل له جئنا لنطوّب البنت، فليأت بدفتر لنوقّع على التطويب!

لم يخرج المختار الياس، أرسل ابنه يطالب بالدّين، فقال الخال:

ـ الحقّ مع والدك يا ابني، نحن مثله أصحاب ذمّة، قل له يتفضّل لنتحاسب.

لكنّ المختار رفض الخروج خوفًا، فقال الخال بصوتٍ عالٍ:

ـ يا خواجة الياس! الصغيرة بنت أختي، وأنا كفيلها.. اتركها تذهب مع أمّها وارهنّي أنا محلّها، ولمّا لم يسمع جوابًا، نهض وسار إلى بقرة مربوطة في الباحة وقال بصوت تعمّد أن يسمعه المختار:

ـ سأفكّ هذه البقرة وآخذها، وإذا لم تأتِ البنت إلى أهلها هذه اللّيلة سأذبحها!

ـ والدّين؟

ـ وتعب المرابع في حقلك، تأكله.. اخرج إليّ لنتفاهم!

لم يخرج المختار، لم يجب، فكّر في الدّاخل، وازن بين البنت والبقرة، كانت البقرة أعزّ عليه، أنفع له، لذلك أطلق سراح أختي التي ركضت فرحة صوب أمّها، والخال برهوم يقول:

ـ بقيّة الحساب معك نصفّيه مستقبلاً يا مختار. . نصفّيه عندما تتعلّم كيف تتعامل مع الرّجال!

... وسالت بنا دروب الهجرة

ولم يأتِ الموسم المنتظر، فعمّ خراب المزارعين كلّ أنحاء سورية، لأنّ الله، بحسب تعبير الأمّ، انتقم من الناس لكفرهم وقلّة إيمانهم، ولن يرفع الله غضبه عنّا إلّا بالتوبة والاستغفار، والصلاة له في كلّ الأوقات. «صلّوا يا أولادي، صلّوا، ارفعوا أيديكم إلى السماء مبتهلين، عساها ترفع عنّا الغمّة، ونستطيع تصريف موسمنا من القزّ!». ولكي ترتفع الغمّة، وقفنا وراء الوالدة وصلّينا. كانت هي تقرع صدرها متضرّعة، سائلة الربّ، والعذراء، والملائكة، الرّحمة بنا نحن الفقراء، الذين عملنا كلّ العام بانتظار الموسم، كي نبيع ما عندنا من شرانق دود القزّ، فنسدّد بعض ديوننا، ونكتسي بما يتيسّر، دون أن نحتذي، لأنّ الأولاد أمثالنا كانوا يمشون حفاة، وكي نشتري بعض القمح والشعير والزيت مؤونة للشتاء المقبل.

كنت في الخامسة من عمري، وكانت الأمّ تصلّي وتمسح على رأسي كي أكبر، ولم يكن لديّ أيّما شكّ في كلام الوالدة، مصدّقًا أنّ الله يعاقبنا على كفرنا، وأنّه لن يرفع عنّا الشدّة إلّا بالتوبة إليه، وبالصّلاة والنذور، وشفاعة جميع القدّيسين، وقد

صلّيت طويلاً، بقلب طفل مؤمن أعمق الإيمان، إلّا أنّ السماء والملائكة التي فيها سدّوا آذانهم عن دعواتنا غير المستجابة، لأمر أجهله، وربّما كان المختار، الذي يشتري موسم القزّ، والذي يعرف أكثر منّا، يفضّل قزّ غيرنا على قزّنا، ولابدّ لنا في هذه الحال من استرضاء المختار، فذهبت إليه مع الوالدة، وبكينا معًا، دون أيّ فائدة، وقال الأب:

ـ ضاع الموسم وضعنا جميعًا!

سألت الوالدة:

ـ لماذا وكيف؟

ردّ الوالد بنزق:

ـ وهل أعرف حتّى أشرح لك ما جرى!؟

ـ إذا كنت أنت لا تعرف فمن يعرف إذن؟

ـ عزرائيل!

ـ أعوذ بالله.

ـ استعيذي ما شئت، لكنّ الموسم بار، والخراب عامّ يا حرمة!

قالت الحرمة بصوت وانٍ:

ـ لماذا لا نحمل المحصول إلى «اللوشيّة»، هناك السوق والتجّار ومركز المدينة!؟

ردّ الوالد:

ـ أقول لك لا فائدة.. السوق في اللوشيّة مغلق والتجّار لا

يشترون حتّى بنصف السعر.

أضاف:

ـ لابدّ من الهجرة، صناعة دود الحرير ماتت يا مريانا، قتلها الفرنسيّون.. الحرير الصناعي غزا الأسواق، وهو رخيص جدًّا، ولم يعد للحرير الطبيعيّ من مجال.. الصلاة، وحدها، لا تفيد.

برطمت الأمّ:

ـ وماذا يفيد إذن؟ السّكر؟

ـ زعق الوالد:

ـ سدّي بوزك وإلّا مسحت بك الأرض.. اخرسي يا بنت..

قال ذلك وصفعها بقوّة، فتأوّهت الأمّ متوجّعة، باكية، وركضنا نحن صغارها إليها، نحاول إبعادها، حتّى نخلّصها من غضب الوالد، الذي وجد نفسه، كمرابع ومربٍّ لدود الحرير، في ورطة لا خلاص منها سوى بالهجرة، على نحو ما يفعل أمثاله، الذين وجدوا أنفسهم في ورطة كورطته.

أمام أنين الأمّ، وبكاء الصغار الذين هم نحن، التزم الوالد الصمت. كان متألّمًا حقًّا، عاجزًا حقًّا، لأنّ دودة الحرير ماتت.. ماتت هذه المباركة ومات النّاس معها.. رأى ذلك بعينيه، ورأيناه نحن في عيون الأهل والجيران، لكنّ الأبّ، كرجل، عاش كارثة دود الحرير على نحو أعمق.. ظلّت صورة الكارثة عالقة في ذهنه، وسيقصّ علينا الفاجعة ونتائجها المدمّرة

طويلاً، سيذكر كيف حمل «غرارات» الشرانق على ظهره، وسار بها إلى بيت المختار، حيث كان المرابعون من كلّ الحقول ينقلون، على ظهورهم ودوابهم، أكياس الشرانق مثله، وحيث كان المختار، في همّة فاترة ووجه عبوس، يستقبل مواسم المرابعين، ويشتمهم لأنّهم تأخّروا، ولأنّ الشرانق بدأت تطير، والأسعار تتدنّى، وكلّ شيء ينبئ بالبوار والخراب.

كان المرابعون يسلّمون مواسمهم ويعودون مطرقي الرّؤوس. دفتر المختار أغلق: لا قرش جديدًا على الحساب، دكّانه أغلقت: لا حبّة ذرة أو شعير، لا قطرة زيت أو كاز.. كانت الدروب تسيل بالرّجال والنساء والأطفال، تعجّ بهم، كانوا مغبرّين، مشعّثين، حفاة، والأخطر من ذلك كانوا يائسين. «اذهبوا إذا شئتم، قال لهم أصحاب الحقول، حتّى لو استطعنا تصريف الموسم، بأي سعر، فإنّه آخر موسم.. نحن لا نستطيع ضمان أيّ شيء.. ربّما هاجرنا من البلدة مثلكم.. الدودة ماتت.. تربية القزّ انتهت.. الحرير الهندي قضى علينا وعليكم!».

في ذلك الوقت، من الطفولة المبكرة جدًّا، لم أكن أعرف ما يعني وجود فرنسا في سورية، ولا سمعت بمعركة ميسلون ومقتل يوسف العظمة، أو بالجنرال غورو الذي دخل دمشق عنوة، وذهب فوضع قدمه الدّنسة على قبر صلاح الدّين الأيّوبي قائلاً بشماتة: «ها قد عدنا يا صلاح الدّين!» ولم أكن قد سمعت بالثورة السوريّة الكبرى، وما قدّم الشعب السوري من شهداء، وما ضحّى به من أجل إجلاء الاحتلال الفرنسيّ عن

سورية. كنت طفلاً صغيرًا، عليلاً، جاهلاً، ضائعًا مع عائلته، تائهًا بين رحيل والدي الدائم، وبكاء أمّي الدائم أيضًا. وكنت، في بدء تشكّل الوعي، أحاول عبثًا أن أفهم الأشياء، في الطبيعة والمجتمع، مقتنعًا بما تقوله أمّي من أنّ كارثة دود الحرير، التي حلّت بنا وبالمرابعين الكثر من حولنا، هي انتقام من الله لأنّنا في الخطاة، ولأنّنا لا نصلّي كفاية، أمّا الصوم فكان مستوفيًا أغراضه، لأنّنا في صيام دائم، بل في جوع شبه دائم، نعيش عراة حفاة في حقل مهجور.

بعد ذلك، بعد أن كبرت، مضيعًا طفولتي في الشقاء، وشبابي في السياسة، سأتعلّم في السجون الفرنسيّة العديدة في سورية، أنّ فرنسا لم تأت لتمديننا، أو تعليمنا، أو إعدادنا لنكون أهلاً للاستقلال كما تزعم هي، وعصبة الأمم المتحدة من قبلها، بل جاءت فرنسا لتحتلّنا، لتجعل من سورية أرضًا فرنسيّة، ولتنهب خيراتنا، وتهدم صناعتنا وزراعتنا، وأنّ نكبة دود الحرير ليست غضبًا من الله، وإنّما هي من فرض الحرير الاصطناعي، الفرنسي، المستورد من الهند الصينيّة، على بلادنا، وفرض السلع الفرنسيّة، من الأقمشة إلى الأحذية، ومن الزبدة إلى علبة الكبريت، وأنّها تريدنا أجراء في خدمة مصالحها، وليس مواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات؛ والأهمّ من ذلك كلّه، لم أكن أعرف، حتّى وأنا في السجون، أنّ السياسة ليست فنّ الممكن، بل هي فنّ فهم الاقتصاد.

لقد كانت صناعة الحرير الطبيعيّ صناعة رئيسيّة في سورية، وكانت تربية دود الحرير هي العمل الذي يعتمد عليه المرابعون

والمزارعون في حقول التوت، وفجأة بارت هذه الصناعة، ماتت هذه المهنة، وحلت نقمة الانتداب بكلّ ويلاتها علينا، فبدأت الهجرة الكبرى من الأرياف إلى المدن، وانهار ركن أساسيّ من أركان الصناعة الزراعيّة في البلاد، وشرعت قوافل المهاجرين تزحف، تلهث، تدب، مع الأطفال والأمتعة القليلة، على دروب لم تعرف الإسفلت بعد، ويتساقط المرضى والعجز بين حفرها ويموتون.

المختار الياس يوسف حجازي، لم يقل لمرابعيه: ابقوا! كذلك لم يقل لهم: ارحلوا! والملّاكون سلكوا السلوك نفسه: ليبقَ من يشاء وليرحل من يشاء.. ليس في الحقول ما يتضرّر إذا رحلوا، وليس فيها ما يُخشى عليه إذا بقوا، أغلقت الدكاكين والدفاتر، تحصّن مَن لديه مال أو حبوب، كان سفربلك، الماثل في الأذهان، يعاود سيرته، يعيد إنتاج نفسه، وقد أتت الأفواه الجائعة على المؤن القليلة الباقية، ولاحت المجاعة كعلامة الطاعون، باع الناس بعض ما يملكون، بعضهم باع كلّ ما يملك، اقترض آخرون، تسوّلوا، أكلوا الحشائش حتّى لم تعد، أواخر الخريف، حشائش ولا قروض ولا أعطية، مهما تكن ناحلة، لأيّما متسوّل أو متسوّلة!

أذكر أنّنا، في حقل التوت الأجرد، تلقّينا بعض الهبات: قصعة من الطحين، حفنة من البرغل، قبضة من التّين اليابس، ربع زجاجة من الزيت، أرغفة يابسة من الخبز. ورغم ذلك فإنّنا جعنا.. فالهبات، ولو استمرّت، وهذا مشكوك فيه، ما كانت قادرة أن تمسك علينا حياتنا، فكيف وقد أخذت تنقطع، يومًا

بعد يوم، حتّى صرنا، أختي الأصغر وأنا، نلوب جائعين، صارخين: نريد أن نأكل!؟

في تلك الأيّام السّود، ذرفت أمّي من الدمع ما لم تذرفه عمرها كلّه، كانت تبكي، وكان الوالد يدور في البيت محتارًا، عصبيًّا، مجدفًا، معتزمًا الرحيل إذا حلّ المساء، متردّدًا في الرّحيل إذا جاء الصباح، ضاربًا في الحقول المقفرة بحثًا عن طعام، حاملاً ما تبقّى من متاع للبيع، فإذا فشل في بيعه، وفشل في الحصول على ما يسدّ رمقنا، رجع إلينا خائبًا، متوسّلاً الأمّ بنظرات ذليلة أن تذهب إلى الميسورين من الناس فتبكي، وتشحد لنا شيئًا يؤكل!

في صباح غائم، أسود الغيم، وفي برد الشتاء والرّيح غضوب في عصفها، قرّر الوالد أن نرحل، سيرًا على الأقدام، باتّجاه أنطاكية، فاستعار حمارًا، أو بادله بما في البيت من أمتعة نافعة، وجمعنا ما تبقّى من فرش وأغطية، حملناها على الحمار، وحملني والدي، وحملت أمّي أختي الصغيرة، وشرعنا في سير أشبه بالزحف..

لم نودّع أحدًا، لم يكن لنا من نودّعه، فالخال برهوم مات، وشعرنا أنّ السماء تخلّت عنّا، وأنّها، ونحن نسير، تطبق أكثر فأكثر علينا، وقال الوالد من قلب أنهكه القهر:

ــ يا ربّ!

وردّدنا، بناء على طلب الوالدة:

ــ يا ربّ! يا ربّ! يا ربّ!

في البرّية، وبين الوحوش.. والتيه!

بعد أن سالت بنا دروب الهجرة، إثر نكبة حرير القزّ الطبيعيّ الفاخر، لا أدري كم من الوقت استغرقت رحلة العائلة من السويديّة إلى أنطاكية. كنّا نمشي ونستريح، والحمار الذي استأجره الوالد كان من الهزال بحيث خفنا أن يسقط ويموت، وهو يحمل القليل من أمتعتنا التي حرصت الوالدة على عدم الاستغناء عنها، لا لأنّها من الضروريّات فقط، بل لأنّها تتألّف من فراشين وبعض الثياب لا أكثر.

كانت الوالدة، في بدء الرحلة، تبكي دون أن نشاركها البكاء، مكتفين بالنظر إليها نظرات أسيانة، خشية أن تظنّ أنّنا نبكي من التعب، وهذا ما يزيد في شقائها، لشعورها بالمرارة على فراق البيت، وحقل التوت، وتربية دود الحرير، والجيران، وحتّى زوجة المختار التي كانت كريمة وطيّبة معنا إلى أبعد حدود الطيبة.. وفوق ذلك كلّه كانت تبكي موت الخال برهوم، وتستمطر الرحمة عليه، لأنّه لو كان حيًّا لما هاجرنا على هذا النحو المذلّ، في شبه هرب من المختار وديونه علينا، ولكان، أكثر من ذلك، أعطانا بعض المال، أو

على الأقلّ وفّر لنا وسائل الانتقال إلى أنطاكية راكبين على الرّواحل، وربّما كان، وهو الأريحيّ الشجاع، رافقنا ليحمينا من قطّاع الطريق!

الوالد كان يتقدّمنا صامتًا، ضاغطًا على أعصابه كيلا تنفجر، غير خائف من اللّصوص، لأنّه، كما قال في بعض محطّات استراحتنا، ليس معنا ما ينتفع به قطّاع الطرق ليسرقوه، ولو فعلوا لقاومهم بتهوّره المعروف، أو لقال لهم ببساطة: «نحن أقرباء الخال برهوم... ساعدونا كرمى لذكراه!». وكان هذا الوالد البائس أكثر منّا، يستغل وقوفنا ليلفّ سيكارة يدخّنها، وهو يردّد بغضب ونقمة: «الحرير الهنديّ خرب بيوتنا.. عملتها فرنسا معنا، هذه الكافرة قضت على رزقنا!» يضيف: «ماتت إلى الأبد تربية دود الحرير.. غدًا يقطعون أشجار التوت، أو تموت، لأنّ الناس هاجروا مثلنا ولم يبق من يعتني بها.. يبدو أنّ السماء لم تسمع تضرّعاتنا، أو أنّها سمعت وطنّشت.. السماء أيضًا مع القوي ضدّ الضعيف!» فتبرطم الوالدة زاجرة إيّاه: «لا تكفر يا رجل، استغفر ربّك، اشكره على أنّ أحدًا منّا لم يمت وأنّنا خرجنا سالمين!» فينتهرها الوالد قائلاً «أستغفر الله ألف مرّة، ولكن قولي لشفيعتك مريم العذراء أن تساعدنا في محنتنا، أو كفّي عن البكاء والتحسّر بغير ما فائدة، ما جرى قد جرى، والطريق أمامنا طويل، نحتاج معه الصبر وشدّ العزائم.. هل معنا من الطعام والماء ما يكفي؟ خذي في حسابك أنّنا لا نستطيع المشي في اللّيل، وقد نضطرّ إلى المبيت في العراء، إذا لم نجد بيتًا رحيمًا يؤوينا ولو لليلة واحدة، حتّى نصل إلى أنطاكية وتنتهي

هذه الرحلة الملعونة!» فتجيب الوالدة بإيمانها الراسخ: «لا تخف، لا تخافوا يا أولاد، أنا لا أبكي من الخوف، بل من فراق الذين تركناهم، والذين هاجروا لا أدري إلى أين، الله معنا، الله لا يتخلّى عنّا، لأجل الأطفال على الأقلّ، المسيح أحبّ الأطفال، قال لتلاميذه: «دعوا الأطفال يأتوا إليّ»، علينا في كلّ استراحة أن نصلّي. فيردّ الوالد: «أنا صلّيت ما فيه الكفاية.. صلّي مع الأولاد إذا شئت.. الصلاة نافعة على كلّ حال، لكن صلّوا بسرعة.. علينا أن ننهض ونمشي من جديد، مادام الحمار قد أكل عليقه واستراح مثلنا.. قولوا يا الله».

وقلنا، بصوت واحد: «يا الله!» وعدنا نمشي والشمس تميل قليلاً قليلاً، والوالدة تسألني: «هل تعبت يا حنّا؟ هل تعبت يا ابني؟» فأجيبها مكابرًا «لم أتعب بعد، أنا قادر على المشي مثلكم ومثل أخواتي، لكن متى نصل إلى أنطاكية هذه؟» «قريبًا.. لابدّ أن يساعدنا الله، هو الحاضر الناظر».. إلّا أنّ هذه «القريبًا» طالت جدًّا، فرحنا نراقب الشمس وهي تنحدر نحو الأصيل ثمّ الغروب، والفلاة من حولنا واسعة مقفرة، تسرح فيها، وبين أدغالها، في اللّيل جميع أنواع الوحوش، وليس في يد الوالد سوى العصا.

فجأة حدثت المعجزة. رحم الله الخال برهوم فقد ساعدنا حيًّا وميتًا، ولم يكن أحد منّا، لا الوالد ولا الوالدة، يخطر في باله، مجرّد خاطر، أنّ الخال برهوم، الرّجل الشجاع، له هذا النفوذ المقترن بالحبّ، في قلوب بعض قطّاع الطرق، الذين، كما المعروف عنهم غالبًا، خلت قلوبهم من الرّحمة. تصدّى

لنا، قبل الغروب بقليل، رجلان يشهران السلاح علينا. سألا الوالد:

ـ إلى أين؟

ـ إلى أنطاكية.

ـ مشيًا على الأقدام؟

ـ ماذا نفعل والنّاس تهاجر كيفما اتّفق؟

ـ أين المال الذي معكم؟

ـ كلّ مالنا هذا الصغير.. خذوه!

صاحت الامّ:

ـ لا! لا تأخذوه! أرجوكم، أقبّل أيديكم، ليس لي غيره، وقد شحذته من الله.

قال أحد الرّجلين:

ـ نحن لا نأخذ الأطفال.. ماذا في هذا الحمل على الحمار؟

ـ فراشان وقليل من الثياب، وطنجرة وصحون.

ـ وأين خبّأتم المال؟

بكت الأمّ، قالت:

ـ يا حسرتي يا ابني، هل كنّا نذهب إلى أنطاكية مشيًا على الأقدام، لو كان معنا المال.

صاح بها:

ـ البكاء لا ينفعك في شيء يا حرمة. . نريد المال.

ردّ الأبّ:

ـ فتّشنا!

ـ وهذا الحمار؟

ـ هذا الجحش لا ينفع لشيء كما ترون. . نخاف أن يموت معنا على الطريق.

ـ بكم اشتريتموه؟ ولماذا اشتريتموه، إذا كان سيموت؟ أنت تكذب يا زلمة. . اترك عائلتك وقف جانبًا، لنا معك حساب.

تدخّلت الأمّ، مصادفة، بكذبة بيضاء:

ـ هذا الحمار أعطانا إيّاه حَسَنة الخال برهوم.

ـ الخال برهوم مات. . وأنتِ أيضًا تكذبين.

سأل الرّجل الآخر:

ـ الخال برهوم لا يتصدّق بحمار مثل هذا، إنّه، رحمة الله عليه، كان كريمًا. . ولكن من أين تعرفينه؟

علا نحيب الأمّ وهي تقول من بين دموعها:

ـ إنّه خالي، وأنا بنت أخته.

ـ أنت بنت أخته!؟

ـ أحلف على الإنجيل.

تفرّس فيها الرّجل وقال:

ـ لا تحلفي يا أختي. . لا تخافي. . انتظروا حتّى أعود.

قال ذلك وعلّق بندقيّته في كتفه، غاب قليلاً ليعود ومعه رجل ضخم، طويل القامة، مفتول الشارب. نادى الوالد وسأله عن اسمه، وعن المكان الذي كان يشتغل فيه، ولماذا يهاجر، وأين يقصد، ولماذا يذهب ماشيًا ومعه أطفال صغار. . وهل يعرف الخال برهوم حقيقة، وهل زوجته بنت أخت الخال برهوم، وما هي ملامحه وصفاته هذا الخال إذن؟

تقدّمت الأمّ وهي تنشج تأثّرًا، صاحت:

ـ إنّه خالي، والله خالي يا آغا، وكان، يا حسرتي عليه، قاطع طريق قبل أن يتوب إلى الله.

أنزل الرّجل بندقيّته، ركّزها في الأرض، اتّكأ عليها، فكّر قليلاً، ابتسم وقال:

ـ هو الذي أعطاكم هذا الجحش؟

أجابت الأمّ:

ـ لا والله يا آغا، أنا كذبت سامحني، لو كان خالي برهوم حيًّا لأعطانا حصانًا. . لكنّه. . .

وخنقها البكاء، فقال الرّجل:

ـ أنتِ صادقة يا أختي، أنا علي دعموش، أبو علي السبع، هذا لقبي. وكان الخال برهوم، الله يرحمه، أخي، أنقذ عيالي في وقعة على هذا الطريق، وأريد بالمقابل أن أنقذك أنت والعائلة، حرام أن أترككم إلى الوحوش في هذا اللّيل. . هنا

بيت قريب.. تعالوا، ستأكلون، وتنامون.. وغدًا يفرجها الله.. تعالوا، تعالوا..

وذهبنا معه.

وفي الغد فرجها الله، وأبو علي السبع، والخال برهوم «رحمات الله عليه!!!».

ولكن هل مات الخال برهوم حقًّا؟ إنّه يختفي ويظهر. وعندما اختفى قالت الأمّ: «إنّه مات!» وكانت، هناك، على طول الطريق بين السويديّة وأنطاكية، إشاعات تقول: «إنّ الخال برهوم مات!» لكنّه في الحقيقة لم يمت.. وعندما سأكبر، وأقرأ المتنبّي، سأتذكّر الخال برهوم بهذا البيت:

كم قد قُتلتُ وكم قد مُتُّ عندهُم   ثمّ انتفضتُ فزال القبرُ والكفنُ

الخال برهوم، الإنسان حتّى أعماقه أوّلاً، وقاطع الطريق حتّى أعماقه ثانيًا، لم يمت.. كان هو الذي عناه المتنبّي، في بيته الشعري، عن نفسه، دون زيادة أو نقصان! لكنّ الإشاعة تبقى إشاعة.. تسري كما الرّيح!

حين تهان الرّجولة!..

طلب رئيس قطّاع الطّرق، بين السويديّة وأنطاكية، من أحد رجاله أن يرافق العائلة إلى بيت قريب، إنقاذًا لها من الضياع في الظلمة، أو افتراس الوحوش الكاسرة، أو الوقوع بين أيدي عصابة أخرى من قطّاع الطّرق، أو السقوط إعياء، والأطفال خصوصًا، من تعب المسير مشيًا على الأقدام، في نزوح اضطراري، بعد نكبة تربية دود الحرير، وهربًا من المختار الذي كانت تدين له العائلة بمبلغ ضخم عامًا بعد عام، بسبب الفائدة المتراكمة، وما استجرّته من دكّانه كيلا تموت جوعًا.

الوالد اعتبر معرفة رئيس قطّاع الطرق بالخال برهوم إحدى معجزات السماء، وما أشكّ أنّ الوالدة اعتزّت أمام زوجها بمكانة هذا الخال، ورهبته حتّى بعد موته، ونجدته لنا في الضّيق الذي نحن فيه، إضافة إلى مبادرته، وهو حي، لانتشالنا من عدّة مآزق، بسبب من شجاعة قلبه وكرم يده، وذيوع صيته كقاطع طريق سابق، معروفة عنه النخوة، الأريحيّة، العفو عند المقدرة، والتزام الشرف في مهنة غير شريفة... إلّا أنّ الأمّ، وهي في صباها لا تزال، ومعها ثلاث بنات وصبيّ وحيد هو

أنا، خافت أن يكون نقلنا من الطريق إلى البيت، ينطوي على غشّ، أو إخلال ولو بسيط بالشرف، أو أيّ تحرّش كانت تفضّل الموت ولا التعرّض له.

قالت لوالدي همسًا:

ـ تكفينا منهم الرّحمة، على أن يدعونا في مكاننا إلى الصباح.

ردّ الوالد بنزق:

ـ نرفض المبيت في بيت، ونبقى على قارعة الطريق!؟

ـ وهل البقاء هنا أكثر أمنًا!؟ لا تنس أنّهم قطّاع طرق!

ـ وخالك برهوم، ألم يكن قاطع طريق؟

ـ لا تلفظ اسم خالي حتّى لا يشتبهوا بنا، ولا تقارن خالي بغيره.. كان، رحمه الله، يملك قلبًا فيه خميرة المسيح.

قال رئيس قطّاع الطّرق، وقد سمع بعض ما قالته الأمّ:

ـ ونحن يا أختي، في قلوبنا خميرة محمّد عليه السّلام.

أضاف:

ـ ما اسمك يا حرمة؟

ـ مريم يا أخي.

ـ يا مريم! أنت أختي بإذن الله، وعائلتك عائلتي.. لا تخافي.

ـ أنا غير خائفة، ولكن..

ـ قطّاع الطّرق لا يُؤمن لهم، وأعرف بماذا تفكّرين، ومن

حقّك أن تفكّري. . لكنّني أنصحك بالبقاء عندنا حتّى الصباح، والصباح رباح كما يقولون. . وأنتَ، أنتَ يا رجل، قل لزوجتك ألّا تخاف.

قال الوالد:

ـ أنت يا آغا على العين والرّأس، زوجتي ليست خائفة منك، بل من غدر أحد ما.

ردّ الرئيس بحسم:

ـ أنتم وما تريدون: نكرمكم في مكانكم، ونكرمكم في بيوتنا، وهذه كلمة شرف.

قال الوالد:

ـ لا تزعل يا آغا، عقل الحرمة يظلّ عقل حرمة. . نذهب مع الدّليل، ولا ننسى معروفكم أبدًا. . هيّا يا أولاد. . الله لا ينسى عبده.

مشينا وراء الدّليل الذي حاول حملي فرفضت، التصقت بأمّي بحركة عفويّة، كان الطريق وعرًا، وكان الدليل يحمل فانوسًا ويسير أمامنا وهكذا، عبر الظلمة، بين الأشجار والصخور، اجتزنا المسافة بين الطريق والبيت، ولأنّنا في براءة الطفولة، فإن هواجس الوالدة لم تكن هواجسنا. . كنّا فرحين إلى حدّ ما، نرغب بالوصول، بالدفء، بالطعام والنّوم. . وفجأة لاح ضوء خافت لنا، ضوء غير بعيد، مختبئ في البساتين. وبعد أن اجتزنا خندقًا، فوقه ألواح خشبيّة، قال الدّليل:

ـ هذا بيت الآغا.. أنتم محظوظون يا جماعة.. الآغا ينزلكم في بيته؟ عجيب! ما اسم خالك يا حرمة؟

ـ برهوم يا أخي، كان مثلكم.

ـ مثلنا بأيّ معنى؟

قال الوالد:

ـ بالمعنى الطيّب طبعًا!

ـ في هذه الحال مرحبًا بكم.. تفضّلوا.. شيلوا صراميكم من أرجلكم.. لحظة وأشعل لكم النّار.

خلعنا أحذيتنا، مشينا على سجّادة، لأوّل مرّة كنت أرى سجّادة، ولأوّل مرّة أمشي فوقها. قالت الوالدة: «على مهل، لا ترموا ثقلكم عليها!» قال الدّليل: «نعم! على مهل.. هذه سجّادة وليست حصيرة!» قال الوالد: «كثّر الله خير الآغا.. سنحافظ على كلّ شيء كما نحافظ على أعيننا.. على مهل يا أولاد دوسوا على مهل». دسنا على مهل، على ريش نعام، تأمّلنا البيت، دهشنا لما فيه من أشياء جديدة عجيبة، نرى مثلها للمرّة الأولى، تهيّبنا اللّعب على السجّادة، مع ما في ذلك من إغراء، لم أتمالك نفسي، تدحرجت قليلاً فوقها، فتح الباب، صاح بي الدليل «بلا شيطنة يا ولد!» خفت، لجأت إلى أمّي، اختبأت وراءها، قالت لي: «لا تخف.. تقبرني، هذا بيت عمّك الآغا، جبر بخاطرنا الله يجبر بخاطره، علينا، احترامًا له وحرصًا على سلامة بيته، ألّا نتحرّك من أماكننا!» قال الوالد: «ليس إلى هذا الحدّ يا مريانا!»، التفت الدليل الذي يشعل النار

في المدفأة وقال بنبرة حادّة، آمرة، لا شفقة فيها: «إلى هذا الحدّ وأكثر! أقول لكم هذا بيت الآغا، الذي لم يفتح لغيركم، فما تظنّون؟ أمزح معكم!؟ وأنت يا أختي، يا أمّ الأولاد، تعالي معي إلى الخارج!» صاحت أمّي: «يا ويلي، نرحل ولا أخرج معك.. قم يا سليم، قوموا يا أولاد، سنترك هذا البيت فورًا!».

نهضنا ونحن حيارى، لم نفهم الذي جرى تمامًا، ركضنا إلى الأمّ، تعلّقنا بأذيالها، رأينا وجه الوالد يتغيّر، يصفرّ، ترتعش عضلاته، يتمتم بشيء لعلّه شتيمة.. فتحنا الباب، طالعتنا الظلمة، واجهنا المجهول، قال الوالد:

ـ الخير في ما اختاره الله، هذه قسمتنا، كان عليّ أن أسمع منك يا مريانا.. نصيب! البسوا صراميكم يا أولاد، الحقوني ولا تخافوا.

جاءنا صوت غاضب من العتمة:

ـ إلى أين؟

ـ ردّ الوالد:

ـ إلى مكاننا على الطريق، والله لا يقطع بعباده.

اقترب صاحب الصوت، برز وجه ملثّم من العتمة، كشف عن وجهه وسأل بصوت مرتجف:

ـ ماذا جرى؟

ردّ الوالد:

ـ كلّ خير يا آغا!

ـ ولماذا تتركون البيت إذن؟

قالت الأمّ لتكسر الشرّ:

ـ خفنا أن يكسر الأولاد بعض الأواني فنقع في مشكلة.. لذلك اضطررنا إلى ترك البيت يا آغا!

صاح الآغا:

ـ وإذا كسروا أيّ شيء، ماذا يحدث؟

ـ نروح في داهية.. نحن، يا آغا، نفضّل أيّ بيت فارغ، نقضي فيه ليلتنا، وألف شكر لك.

صاح الآغا وهو يرتجف:

ـ عودوا إلى الداخل، إلى أماكنكم، ماتت النخوة؟! حلق شواربي ولا هذه الإهانة يا مريم..

بكت أمّي. قال الوالد:

ـ والله كلّك رجولة، كلّك شهامة يا آغا، ومعاذ الله أن تهان وأنت الكريم.. لكنّنا نرى من المناسب ترك هذا البيت في الحال، والنزول في أيّما بيت على قدر حالنا..

سأل الآغا:

ـ أنت، يا سليم، رجل ولّا مَرَهْ؟

قالت الأمّ:

ـ حاشا يا آغا، زوجي رجل يعجبك، ومن أجل ذلك نترك البيت.

قال الآغا وهو يبرم شاربه بيد مضطربة:

ـ فهمت، يا أختي، فهمت. .

قالت الأمّ متوسّلة:

ـ نرجوك. . لا تفهمنا خطأ، ورحمة الخال برهوم تتركنا بحالنا. . خلّنا نمشي الله يستر على حريمك.

ردّ الآغا:

ـ ورحمة الخال برهوم لا تتحرّكون من هذا البيت. . أخطأت. . نعم! أخطأت. . لم أحسن الاختيار. . هذا الكلب. .

لم يكمل الآغا كلامه. . قطعه صوت إطلاق نار، سحب بندقيّته وأطلق عيارين في الهواء، قال لوالدي:

ـ أدخل مع عائلتك يا سليم، أدخل بسرعة. . هناك، على ما يبدو، مشكلة، سأحلّها وأرجع إليكم. . سأرجع بسرعة، ادخلوا!

ودخلنا!

وبمثل لمح البصر ابتلعت الظلمة الآغا والدليل. . وبدأ الرّصاص يلعلع!

الظلمة.. وشرف قاطع طريق!

لم يأتنا نوم، أخواتي وأنا، كنّا جائعين، خائفين، نسمع إلى أزيز الرّصاص ونكتم أنفاسنا، بينما الوالد يصغي، يشعل النّار، تتأرّث النّار، نستشعر الدّفء، ننتظر أن يقول شيئًا، أن يطمئن الوالدة الأشدّ خوفًا منّا، أن ينكسر الصمت.. تتبدّد الكآبة، تكفّ الكلاب في الخارج عن العواء، تتوقّف الضفادع عن النقيق، يهدأ الرّصاص، يعود الآغا الذي أصبح، الآن، كلّ أملنا في دفع أذى الدليل عنّا.

لم يجدّ جديد خلال وقت طال، أو حسبناه كذلك، تعلّقت أبصارنا بوجه الوالدة، الوجه الأليف الحنون، الذي ندرك، من انكماش أساريره، من انفراجها، في أيّ حال نحن، حتّى جاء الفرج بغتة في سماعنا صوت الأمّ:

ـ لنركع ونصلِّ يا أولاد.

ركعنا، صلّينا، «أبانا الذي في السموات...» ختمناها بالدعاء أن يحفظنا الله، يحمينا من كلّ شرّ، يدفع أذى أولاد الحرام عن الجميع، وعن الأب خصوصًا، وكذلك الآغا، وأن

ينصره على أعدائه، ويقينا شرّه إن كان يريد بنا الشرّ، وهنا صاح الوالد:

ـ أيّ شرّ يا مريانا، والآغا يبسط علينا حمايته؟

ـ لكنّ قلبي..

زعق بها:

ـ دين قلبك! ألا ينخزك قلبك إلّا بالسوء؟ تريدين تخويف الأطفال أكثر مما هم خائفون!؟

ـ لا تكفر! استغفر الله وقم صلِّ أنت أيضًا.

ـ أستغفره ألف مرّة، وصلاتك وحدها تكفي.. طول عمرك تصلّين، وطول عمره النحس راكبنا.

ـ يا ويلك من الله، قلّة حيلة وطول لسان!

ـ أعوذ بالله من شرّ هذه اللّيلة! ماذا تريدين أن أفعل؟

ـ صلِّ!

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. كفّي بلاك يا حرمة.. ثمّ من قال لك إنّني لم أصلّ؟

ـ في قلبك؟

ـ نعم! في قلبي.. ألا تجوز الصلاة في القلب!؟ الله يسمع القلب أكثر من الشفاه.

ـ بسّ الخوري...

ـ أبوكِ على.. أستغفرك يا ربّ.. والله، ورحمة الخال برهوم، كلمة ثانية وأفشّ خلقي فيكِ.. أقول لك اخزي الشيطان وإلّا..

ـ خزيته.. استرح!

استراح الوالد الذي لا يصلّي، ولا يعرف الصلاة أصلاً! استرحنا نحن أيضًا، شكرنا الله في قلوبنا لأنّ حدّة الوالد لم تدفعه إلى ضرب الوالدة، تجمّعنا حول الأمّ خشية أن تنبس بكلمة فتستفزّ الأب.. بعد قليل سمعنا نقرًا على الباب، نهض الوالد، تنبّهت شكوك الوالدة، أرهفنا آذاننا، وإذا برجل ملثّم يدخل علينا، يكشف لثامه فإذا هو غير الدّليل، هذا طمأن الأمّ كما قالت، ألقى الرّجل تحية المساء وقال:

ـ هل خفتم!؟ مصادفة لعينة! مصادفة لعينة! لكنّ المعركة انتهت بسلام تقريبًا، قُتل منّا رجل، وأصيبت يد الآغا بجرح بسيط.. أرسلني خصوصًا لأطمئنكم، لأقول لكم: مَنْ يَرْمكم بزهرة يرْمه برصاصة.. أمّا ابن الكلب خديِّج فطحوش، الدّليل الذي أخافكم، فإنّ حسابه قبل طلوع النهار بإذن الله.. ليلتكم سعيدة!

قال الوالد:

ـ وليلتك أسعد..

أضاف:

ـ ليت يدي هي التي جرحت بدلاً عن الآغا!

قالت الوالدة:

ـ قلبي لا يكذّبني أبدًا.. نخز من وقت سمعنا الكلمة، وجئنا إلى هذا البيت!

ردّ الوالد بنزق:

ـ والآن!! ماذا يقول قلبك الكريم!؟ ينخزك من جديد!؟

أضاف وهو ينفخ:

ـ بومة ولا فائدة! لا تبشّرين إلّا بالسوء.. لا تخافوا يا أولاد.. بوجود الآغا لن يتعدّى أحد علينا.. وأنت يا مريانا، قول كلمة حلوة.. ثمّ ماذا يحدث؟ بقدر القرد ما مسخه ربّه!! في أسوأ الأحوال ننام بلا عشاء، وهل هي اللّيلة اليتيمة التي ننام فيها بلا عشاء؟ على كلّ حال الزوّادة معنا. عند اللّزوم كلوا الذي فيها، وأنا لا شهيّة لي..

قالت الوالدة:

ـ بل نأكل منها كلّنا، وأنت معنا!

ـ قلت أنا لا شهيّة لي..

ـ ألا تأتي الشهيّة إلّا مع كأس العرق!؟

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. اسمعي يا مريانا، روحي وصلت إلى حلقي.. نحن أين وأنت أين! في مثل هذه اللّيلة أفكّر بالعرق!؟

ـ أنت تفكّر بالعرق في منامك!

ـ نعم! أفكّر بالعرق في منامي! والله ثمّ والله..

فتح الباب بعد نقر خفيف، دخل الآغا معصوب الكفّ، سكتنا كلّنا، نجت أمّي من الضرب، فرحت لأنّها نجت من الضرب، فرحت أكثر لدخول الآغا.. كان كثّ الشعر، عاري الرأس، شملته حول عنقه، هادئ وقور، يبتسم وهو ينزع بندقيّته من كتفه، بينما صاح الوالد:

ـ سلامتك يا آغا!

ـ الله يسلّمكم.. المسألة عَرَضيّة.. خفتم؟ عَرَضيّة تمامًا، بعض الزعران حاولوا التحرّش برجالي، لخلاف سابق، فأدّبناهم!

ـ والجرح؟

ـ بسيط! العظم سليم والحمد الله، حاولوا أخذنا غدرًا، ومتى؟ في غيابي! مع ذلك الخسارة لا تذكر.. قتيل من رجالنا، وهذا الجرح الخفيف.. هذه هي حياتنا، شقاء في شقاء.. أنا لا أعتدي على فقير، على حرمة، قصْدنا الكبار، نأخذ من الكبار ونعطي الصغار، الناس جاعت بعد نكبة دود الحرير..

قال الوالد:

ـ خرب الله بيت فرنسا، الحرير الهندي خرب بيوتنا، كنّا نعيش على الكفاف، وبعد النكبة لم نعد نجد كسرة الخبز، فاضطررنا مثل غيرنا إلى الهجرة.. هربنا من ديون المختار يا آغا، ماذا نفعل؟ سنمشي إلى أنطاكية، ومن هناك يفرجها الله..

ـ لكنّ الطريق خطر، وهؤلاء الصغار! وأختي حرمتك.. المجنون لا يفعل فعلتك يا رجل!

ـ صحيح يا آغا . . صحيح، لكن عندما تتضايق البقرة تدوس فلوها . . ضاقت الدنيا في وجهنا فطفشنا . . سلّمنا أمرنا لله . .

ـ وعليه الاتّكال دائمًا، إنّما المجازفة هذه عواقبها وخيمة . . اشكروا ربّكم، وترحّموا على الخال برهوم . .

قال الآغا ذلك وصاح:

ـ يا حسيسون! يا جماعة! أين أنتم؟ العمى! ضيوفنا، حتّى الآن، بلا أكل . .

قالت الوالدة:

ـ زوّادتنا معنا يا آغا . . نأكل ما تيسّر وننام، هدّنا التعب . .

الحقّ معك يا أختي، تأخّرنا عليكم . . أولاد الكلب فعلوها معنا اللّيلة بالذّات . . إنّما كلّ شيء جاهز . . ولك يا حسيسون!

ردّ حسيسون:

ـ نعم يا آغا، نعم . . كلّ شيء جاهز وحياة شواربك . . افتح الباب يا علّوش . . افتحه بسرعة . .

فتح علّوش الباب، دخل حسيسون يحمل طبقًا كبيرًا من قشّ، جاء بالعرق والطعام. قال للآغا: «دقيقة ويكون لحم الخروف المشوي جاهزًا» قال الآغا: «تفضّلوا يا جماعة ولا تؤاخذونا . . المثل يقول: «جود من الموجود» ومن الموجود نأكل، قولوا باسم الله . . وأنت، يا أختي، اهتمّي بالصغار، وما بعد الضيق إلّا الفرج! غدًا صباحًا نؤمّنكم إلى أنطاكية. المعروف ما انقطع، والنخوة ما ماتت . . تعالوا يا أولاد، كلوا

يا حبيباتي كلوا، الجوع كافر!»

قالت الوالدة:

ـ نأكل من دون عرق يا آغا.. نحن على سفر!

قال الوالد:

ـ سأشرب كأسًا على شرف الآغا، كأسًا واحدًا فقط، ريقي ناشف..

قال الآغا رافعًا زجاجة العرق إلى فمه:

ـ وأنا مثلك أيضًا.. إنّما عليّ ألّا أكثر.. قد يفعلها ثانية أولاد الكلب.

سألت الوالدة خائفة:

ـ يهجمون علينا يا آغا!؟

ـ فشروا!! يهجمون علينا..! متنا!؟ إنّما الاحتياط، في مثل حالنا، ضروريّ.. والله ثمّ والله، لآخذ بثأر هذه اللّيلة! اشرب يا سليم.. مرحبًا بكم يا جماعة، كلوا يا أولاد، وأنتِ، يا أختي، لماذا أنت مرعوبة إلى هذا الحدّ؟

قالت الوالدة:

ـ الدنيا ظلام يا آغا، وفي الظلام.. آخ من الظلام!

ـ تخافين الظلام؟ تخافين الإنس والجنّ وأنت في بيت الآغا؟ الظلام لا يخيف إلّا الخوّاف، اسألي زوجك.

قال الوالد:

ـ لا تعطِ بالك لحرمة يا آغا، أنا مثلك أحبّ اللّيل، وأمشي في الظلام كما أمشي في ضوء الشمس.. طول عمري والظلمة رفيقتي!

قال الآغا:

ـ رفيقتي وأختي وزوجتي! علم الله.. أسبح في الظلمة كما تسبح السمكة في الماء. شغلنا كلّه في الظلمة! ولكن.. ما هذا؟

قال حسيسون الذي دخل فجأة:

ـ رصاص يا آغا!

ـ عاد أولاد الكلب؟

ـ عادوا على ما يبدو!

ـ إذن سأذهب وأعود!

قالت الوالدة هلعة:

ـ ونحن!؟

ـ في الحفظ والصون يا حرمة! قليلاً وأعود!

وخرج ولم يعد..

.. ولم يرقد للوالدة جفن تلك اللّيلة.

.. وكانت هذه اللّيلة ليلاء لسوء الحظّ!

مات حسيسون.. عاش الآغا!

أصبحنا محاصرين في بيت الآغا، لا نستطيع الخروج. فالموت يحوّم فوقنا، لا نقوى على الهدوء فالرّصاص يتقاطع حول رؤوسنا، والظلام الذي يألفه الوالد، ويسبح فيه الآغا كالسمكة لا يبين له فجر، والأشجار التي تحوّلت إلى أشباح، تخيفنا من جهة، وتحرسنا من الأخرى، وملائكة الوالد، في حرب مع أبالسة الوالد. . ونحن الأطفال، الذين أخافنا صوت الرّصاص، نمنا بعد أن أكلنا، بعد أن تثاءبنا قليلاً، مستجيبين لسلطان الكرى، هذا المستفيد من تعبنا حتّى الإعياء الشديد، وستقصّ علينا الوالدة ما عانت من رعب وما قاست من هول، خوف الهجوم على البيت، أو عودة الدليل الذي قد يستغلّ مدى الاضطراب والفوضى، أو جنون المعركة التي طالت، فيتسلّل إلى البيت لتنفيذ مأربه الشرّير فينا!

النجوم كانت شاهدة، أدلت بشهادتها في ما جرى، على طريقتها، الرّيح كانت رسولاً، حملت إلينا بأمانة ما قالته لغة الرّصاص، في عرس العصابات البدائيّة من قطّاع الطّرق، أحيت القرى المجاورة اللّيل بالدعاء أن تكفّ البنادق، بين

المتقاتلين، عن الحوار المكتوب بدم القتلى والجرحى؛ شرب الوالد أكثر من كأس، لا خوفًا بل تسرية بالخمرة عن المرأة، لامباليًا، تقريبًا، كعادته، بينما الوالدة ترمقه بنظرات التحذير، لمعرفتها أنّه حين يسكر يفعل أيّ شيء، حتّى الخروج من البيت للفرجة على نيازك العيارات الناريّة. . لكنّه، اللّيلة، لم يخرج. نام في مكانه قرب الموقد، قال للوالدة:

ـ نامي، جرّبي أن تنامي، المكتوب ما منه مهروب!

قالت الوالدة:

ـ كيف أنام والدّنيا قائمة قاعدة؟

ـ ستجلس الدّنيا على قفاها في الصباح، حين تبرد الرّؤوس، ويبدأ عدّ القتلى والجرحى.

ـ يا ويلي! قتلى وجرحى، ومن أجل أيّ شيء؟

ـ من أجل اقتسام مملكة الأب والابن والروح القدس، الممتدّة بين السويديّة وأنطاكية!

ـ يا ويلك من حرّ غد!

ـ يا مرحبًا بالغد، ولو في جهنّم!. . اخرسي! إذا كنت لا تريدين مرافقتي إليها!

خرست الوالدة، تعرف أنّ الوالد ينام على رأس جبل، كما ينام في فراشه، دون حساب إلّا للّذي خلقه كما يقول. وكان هذا الحوار، أو هذا المقطع من حوار، آخر ما سمعته قبل أن أنام على ركبة الأمّ، ومن المؤكّد أنّها سهت قليلاً، نامت، لو يصحّ

أن يقال، بعين واحدة، تاركة الأب، الذي حلّت عليه نعمة ربّه فلم يغادر البيت. وفي الصباح الباكر، دخل علينا دليلنا في المساء. حاملاً إبريقًا من الحليب، أجفلت الأمّ، استنفرت قواها للمعركة مع هذا النذل، إلّا أنّه، في ضوء النّهار، كان غيره في ظلمة اللّيل، إنّه خائف.. إلّا أنّ الأمّ المسهدة، لم تكن لها الفراسة الكافية لتعرف أنّه خائف، كانا في حال واحدة، وكلّ منهما لسبب مغاير. شخصان خائف أحدهما من الآخر، إنسانان يرجوان العطف والستر، امرأة خائفة من رجل، رجل خائف من امرأة.. ومن باب الاحتياط أيقظت الوالد كي يدفع عنها الأذى لو وقع، فقال لها دون اكتراث:

ـ لا توقظي الأولاد، نحن في الصباح الباكر، هذا الرّجل يحمل إلينا الحليب..

قال الرّجل مقاطعًا:

ـ الحليب الطازج، من ضرع البقرة رأسًا.

قالت الوالدة بجفاء:

ـ ومن طلب منك الحليب؟

أنا أحضرته من تلقاء نفسي.. لي معك كلمة!

صاحت الوالدة:

ـ عدت، يا ابن.. إلى نغمة المساء؟

قال الوالد ناهضًا:

ـ ما اسمك أنت؟ ولماذا الكلمة.. وما هي؟

قال الدليل:

ـ اسمي خديِّج.. أنا الذي جئت بكم إلى هنا.. الكلمة، يا عمّ، بحضورك، قصدي شريف والله، تريدون أيّة خدمة؟

قالت الأمّ

ـ كثّر خيرك على الحليب، اتركه عندك، قرب الباب، ومع السلامة.

قال الوالد:

ـ وما أخبار المعركة؟

ـ الرّأس سالم والحمد لله.. رأسنا بخير، إذن نحن جميعًا بخير.. الآغا نجا، هزمنا المغيرين، إلّا أنّ المسألة، بالنّسبة إليّ، شائكة.. ليلة أمس أزعجت أختي، لم أكن في وعيي، اللّعنة على الشيطان.. المهمّ أنا بعرضكم، الآغا اشتبه بي، قال لي: «غدًا نتحاسب يا ابن..»، تعرفون ماذا يعني هذا؟ الموت.. أنا داخل عليكم، بعرضكم استروا عليّ، لا كلمة للآغا حول ما جرى..

قال الأب:

ـ من جهتنا ولا كلمة، هنا حفرنا هنا طمرنا.. الله يسامحك يا خديِّج.

قالت الأمّ:

ـ والرّعبة التي أكلناها؟ يسامحه على ماذا؟ على محاولته الاعتداء علينا؟

انتهرها الوالد:

ــ اكسري الشرّ يا حرمة، قلت ولا كلمة يعني ولا كلمة.. اذهب يا خديِّج بأمان الله.

ــ أذهب إلى أين؟ أنا مكلّف بالسهر عليكم، تلبية طلباتكم لحين عودة الآغا..

قالت الوالدة:

ــ المكلّف هو حسيسون لا أنت.

ــ حسيسون مات! قتل في المعركة.

ــ مات حسيسون؟ كيف؟

ــ كيف يكون الموت في المعركة؟ قتل برصاصة في رأسه، جعلت مخّه يتناثر.

ــ يا ويلاه! والباقي؟

ــ ثلاثة قتلى منهم، قتيلان منّا.. حسيسون واحد من القتيلين.. رئيس العصابة المغيرة كانت نهايته سوداء.

ــ قتل أيضًا؟

ــ كان يتمنّى لو قتل. الآغا قبض عليه حيًّا، بعد أن نفدت ذخيرته.. حاصرناه ابن الكلب.

كنت، أنا المصاب بالإرهاف العصبي، قد استيقظت، فركت عيني وانتبهت على عبارة: «الآغا قبض عليه» كدت أصفّق فرحًا، تصوّرت الآغا بأشكال مختلفة، رجلاً يمسك بالرّصاصة

وهي طائرة، شبحًا يهجم على الأعداء فيقبض عليهم بيديه، غولاً كما في الحكايات، قويًّا أكثر من والدي، حامت خيالات المعركة في دماغي، عشتها وأنا قرب أمّي. . رأيت، في خيال طفوليّ، أشباحًا تتصارع، تصرخ، تركض في كلّ الاتجاهات، تبدو، في الظلام، عفاريت، غيلانًا، دون تحديد أوصاف الجسوم التي هي مرعبة، بشعة إلى حدّ لا يصدّق، كما في قصص الأبالسة، ولو سئلت، آنئذٍ، ما هو العفريت، أو الغول، أو إبليس، لأصبت بالبكم. . فالصغار، أمثالي، كانوا يتحدّثون عن الحرامية دون أن يعرفوهم. الحرامي يسرق، يقتل، ونحن نتحدّث عنه في النهار، فإذا جاء اللّيل، ارتجفنا لمجرّد ذكر اسمه، ولابدّ، في هذه الحال، من الاختباء وراء الأمّ خوفًا منه، وتعويذة الأمّ معروفة: التَفُّ على الشيطان، مع رسم الصليب على الصدر، ثمّ الصلاة، والنوم بعدها في خروق الكوابيس!

أضرم خديِّج النّار، على الحليب، وقال للأمّ: «اسقي الأولاد». أيقظت أمّي أخواتي بصعوبة، قالت لهم «اقتربوا من النار حتّى تَتَرَوْحَنوا» تثاءبت الأخوات وعدن إلى النوم، كانت الأمّ غير خائفة من خديج الآن؛ إنّه: بدوره، يخاف الآغا، ونحن في حماية هذا الآغا الكريم، صديق المرحوم الخال برهوم. وبعد دقائق عادت توقظ الأخوات، كانت تريدهنّ أن يشربن الحليب كما فعلت أنا، وترغب في ترك البيت الضخم والملعون في آن، بينما يعالج الوالد البرد بجرعة من العرق، حسب العادة ووفق ادعائه، وفي الخارج زغاريد تبعتها زخّة رصاص. وقال خديِّج وهو يركض خارجًا:

ـ وصل الآغا!

ركض الوالدان أيضًا، ركضنا نتدافع للفرجة، وقفنا على العتبة، نمدّ رؤوسنا لنرى ما هناك، وإذا بالأمّ تردّنا إلى الوراء، صارخة: «أغمضوا عيونكم!» لم نستجب! رأينا شوالين على حمارين، في كلّ شوال رأس وجذع رجل، يتدلّى من جانب سَمَر الحمار، بينما يتدلّى النصف الآخر من الجانب المقابل، فورًا صرخت امرأة:

ـ آه! واحسيسون، وا ابني! يا خراب بيتي!

القتيل الآخر كان من قرية أخرى، لا أمّ له تبكيه. نابت الأمّ عن غيرها، بكت قائلة: «يا حسرتي على الشباب!» زجرها الوالد: «لا تفضحينا يا مريانا! اضبطي أعصابك». ارتدّت الأمّ إلى الداخل لتبكي بحرِّيَّة، لأنّها بحاجة إلى البكاء، بكيت بدوري دون أن أغادر مكاني.. وصل الآغا، أشار بيده طالبًا الهدوء، كانت عيناه حمراوين، وثيابه ملطّخة بالوحل والدم، وكان يجرّ وراءه، مربوطًا بحبل، رجلاً بشاربين كبيرين، عرفنا بعد ذلك أنّه رئيس العصابة المغيرة. حاول خديِّج أن يبصق عليه، ردعه الآغا، قال بصوت قويّ جهوريّ:

ـ اربطوا هذا «البَنزَوْنك» بهذه الصنوبرة الثخينة.. وهاتوا الماء وزجاجة العرق!

كان الآغا يلهث، كان تعبًا حدّ الموت، عانى، في ليلته، الشدائد.. رأى حسيسون يقتل إلى جانبه، عرف الذي كان يعرفه، حين توقع الموت قتلاً في كلّ لحظة! قاطع طريق هو،

لكنّه إنسان شجاع إلّا أنّه ذاق الأهوال . . قلبه من حديد، غير أنّ الحديد يُلوى . . يده جريحة ومعصوبة، الخوف يلمّ، أحيانًا، حتّى بالذي لا يخاف، هل خاف الآغا في تلك اللّيلة اللّيلاء!؟

ربطوا الأسير إلى شجرة الصنوبر، كشفوا عن وجهه، توجّه هذا إلى الحاضرين قائلاً:

ــ الدهر دولاب يا ناس!

أضاف:

ــ أنا، والله، كنت ضدّ الغدر، لكن جماعتي . .

كان رجلاً طويلاً، عريض الألواح، أسود العينين، جميل المحيّا، يحاول أن يكون قويًّا في موقف الضعف، راح يتكلّم بصوت عالٍ دون خوف، والآغا يسمع، يشرب، صامتًا، من فم زجاجة العرق ويسمع، وفجأة رآنا نقف على العتبة فزعق:

ــ لماذا أنتم هنا!؟

أضاف:

ــ إلى الدّاخل . .

وبعد جرعة عرق إضافية تابع:

ــ لا سفر اليوم . . الطريق غير آمن، أنتم ضيوفي إلى ما شاء الله . .

. . . وشاء الله ألّا نتابع السفر، فلم نتابعه.

. . بقينا حيث نحن، معلّقين بخيط الرجاء!

الخال برهوم.. مرّة أخرى!

لم يتكلّم الآغا إلى حوالى الظهر، شرب حيث هو، نام حيث هو، على مصطبة البيت، من دون أن يجرؤ أحد على إيقاظه. . الشمس وحدها، استطاعت ما لم يستطعه إنسان. . كانت ساطعة، حارّة، رغم قرسة البرد في سفح الجبل ذاك. لم يقل إنّني تعب، أو إنّني بحاجة إلى راحة، أو يلقي بزجاجة العرق جانبًا. . رفعها إلى فمه، ظلّ يرفعها، بين هنيهة وأخرى، إلى فمه، فلمّا نام سقطت من يده، بقيت في الموضع الذي سقطت فيه، إلى جانبه، على طرف صدره الأيمن، انزاحت قليلاً، التوت قليلاً، سال العرق على ثيابه، على سترته أوّلاً، على جانب شرواله، اختلط بالوحل، امتزج بالدم. . لم يحسّ الآغا، استغرق في النوم، كان يشخر كمذبوح نصف ذبحة، يحرّك ذراعه، رجله، كفّه، إلّا أنّه لم يفق إلى الظهر، حين لذعته الشمس، فتح عينيه الحمراوين، تمطّى، جلس، تفيّأ بظلّ راحته، وقف، نظر حواليه، مشى بعد أن لفّ عنقه بشملته، مشى رجاله وراءه، غاب بين الأشجار، غابوا معه، سُمع صوت زخّات ناريّة، أذّن العصر، جرى دفن القتيلين، علا

صوت البكاء، وبعد ذلك امتص الصمت حتّى البكاء نفسه، فقال خديِّج:

ـ انتهى التشييع، سيعود الآغا فورًا، بعد أن يأكل الهريسة مع المشيّعين، وأهل القتيلين، ويترحّم عليهما، ويتصدّق، من ماله الخاصّ!

كنّا، خلال ذلك كلّه، ندخل ونخرج، نخرج وندخل، فعلنا ذلك مرّات عديدة، بحذر شديد، فإصبع الوالد المخدّرة لم تفارق فمه، والوالدة لزمت الصّمت، طالبة السترة، والسلامة، نادبة، وهي تتمتم، الحظّ الذي أوقعنا في هذه الورطة، وقام خديج، فور ذهاب الآغا للمشاركة في التشييع، بحمل الطعام إلينا، إلّا أنّ أيدي الوالدين كانت شبه متيبّسة، بخلاف أيدينا، نحن الأولاد، التي التهمت، مع الأفواه، الطعام بسرعة، خشية أن يعود الآغا، وفي عودته، كما كانت ترجو الوالدة، إطلاق سراحنا، إذا لم يذهب إلى عائلته في القرية المجاورة، وإذا ما انتبه وسط مشاغله إلى وجودنا، وقرَّر الفصل في مصيرنا.

في صباح اليوم التالي، عاد الآغا، كان قد استراح، نام في بيته، فكّر في مصير عائلتي القتيلين من جماعته، طمأنهما إلى أنّه يقتسم، معهما، لقمة الخبز، كما فكّر، في ما يبدو، في مصير أسيره، زعيم العصابة المغيرة، المربوط إلى السنديانة، دون طعام مع قليل من الماء، وبطبيعة الحال فكّر في أمرنا أيضًا. . اتّخذ قراره وجاء للتنفيذ، وكان التنفيذ، في مثل هذه الحال، معروفًا، فإمّا الإعدام أو الفدية مع العهد، إلّا أنّ الآغا خرج عن المألوف، أمر بفكّ غريمه، قدّم له الطعام، أعطاه

مشروبه من التبغ المفروم، قال له:

ـ اذهب أنت حرّ!

دهش حتّى الغريم نفسه.. لم يصدّق ما يسمع، فكرّر الآغا بحسم:

ـ اذهب أنت حرّ.. تحدّث إلى جماعتك، إفعل بأصلك، أمّا إذا حملت أنت، أو حمل أحد منهم، السلاح ضدّي، فعقاب ذلك الموت..

أضاف:

ـ أعرف أنّ جماعتي لن يكونوا راضين عن قراري، وهذا واضح، إلّا أنّني آخذ المسؤوليّة في إطلاق سراحك، على عاتقي، إنّني أعرف ما أفعل.

ذهب الرّجل وهو يتلفّت، تراجع وظهره إلى الوراء. كان يرتعد خوفًا، يحسب أنّ هذه هي الطريقة الفضلى التي اختارها الآغا لإعدامه، يدعه يمشي ويطلق عليه النار، يهزأ منه حتّى في حالة الإعدام، غير أنّ الآغا قرّر، كي يؤلّف القلوب، أن يعفو، مدركًا السمعة الحسنة، في القرى المجاورة، التي سيكتسبها، والتي سيعرفها الآخرون من جماعته مع الأيّام. بعد ذلك شرب القهوة، والشاي، وقال للوالد:

ـ لي معك كلام يا سليم، تعال نسير ونتحدّث..

سار الوالد معه، الوالدة لم تعد خائفة، همّها انحصر، الآن، في الكلام الذي سيقوله الآغا للوالد، ومن الاحتمالات

التي ساقتها هواجسها، أن يطلب منه البقاء وقتًا أطول، أو يطلب إبقاء أختي الأكبر، البكر، عنده، أو يرسله إلى مكان ما، بعيد نسبيًا، ليتحرّش الآغا بها في غيابه.. كلّ شيء وارد، مادامت الهواجس فبركة مخيّلة ملتاعة، ومخيّلة المرأة، في مثل هذه الحالات، تغزل على عدّة أنوال دفعة واحدة، أمّا مخيّلة الآغا، الداهية، فقد اشتغلت على مغزل واحد، غزْلُه الخال برهوم، الميت الذي يتطلّع إلى إحيائه!

قال للوالد، بعد تمهيد قصير:

ـ اسمع يا سليم، أنت وعائلتك في أمان، غير أنّك ستنسى اسمك بعد اليوم؛ إذا وافقت، سيكون اسمك برهوم.. الخال برهوم كانت تهابه المنطقة كلّها، وقد مات منذ سنتين كما تقول، ولم يسمع بموته سوى أنا وحسيسون، وهذا مات أيضًا، وأنا أكتم السرّ، نشيع في المنطقة كلّها أنّ الخال برهوم انضمّ إلينا.. لا نقول انضمّ إلى جماعتي، هذا لا يليق. نقول انضمّ إليّ، لنتعاون معًا، في ضبط المنطقة!

أضاف:

ـ هذا الدّور لن يكلّفك شيئًا، ويقدّم إليّ، في الوقت نفسه، خدمة كبيرة، فالمعروف عن الخال برهوم أنّه كان يتحكّم في اللوشيّة، مركز السويديّة، ومن يعصى أمره يمنعه من دخوله، وهذا ما أريده أنا.. تقول إنّك خدمت في السفربرلك بغير سلاح، أنت المسيحيّ، والمشكلة هذه حلّها بسيط، ندرّبك على السّلاح، وتظهر معي ملثّمًا، دون كلمة واحدة، إلّا عند الضرورة. تكفينا جولة، جولة أخرى، ثلاث جولات، على

قرى المنطقة، ويعرف الجميع أنّك الخال برهوم، ولك حصّته من المغانم، لو كان هو حيًّا، ما قولك؟

ـ سأفكّر.

ـ وهل تحتاج، ضربة العمر هذه، إلى تفكير؟

ـ لابدّ من أخذ رأي العائلة!

ـ العائلة!؟ أنت صاحب العائلة!

ـ زوجتي قد لا توافق.

ـ زوجتك!؟ وأنت رجل!

ـ مهما يكن يا آغا، لا أستطيع إعطاء جواب قبل التفكير والمشاورة.. أنت لا تفعل ذلك..

ـ ولا رجالي!

ـ أنا مضطرّ أن أفعل ذلك، حتّى لا أندم مستقبلاً.

ـ تندم على ماذا يا سليم!؟ أقول لك هذه ضربة العمر.. ما رأيك، فوق ذلك، أن أعطيك حصّة من تهريب التُتُن.

ـ الله بيني وبين التهريب يا آغا!

ـ وَمن قال إنّك ستهرّب الدخّان؟ هذه شغلتنا، مصدر رزقنا، نشتري الدخان من المزارعين، نهرّبه على البغال والحمير، نبيعه في سنجق اسكندرونة كلّه، نجْني مرابح طائلة.. الفرنسيّون يترصّدوننا طبعًا، نحن نضارب عليهم، نكسر احتكارهم، ننافس السكائر الفرنسيّة، وهذا كلّه غير مسموح به.. الفرنسيّون يقتلون

زراعة الدخّان في البلاد، تمامًا كما قتلوا تربية دود الحرير فيها، يقتلون هذه الزراعة التي توارثناها أبًا عن جدّ، أو يحتكرونها لأنفسهم. في أنطاكية يقولون إنّ شركة «الريجي» التي أنشأوها، أو هم يحاولون إنشاءها، ستحصر زراعة هذا الصنف في يدها، هي التي تعطي البذور، هي التي تحدّد المساحات المزروعة، هي التي تعطي رخصة الزرع لكلّ فلّاح.. وكلّ المزارعين، بعد ذلك، ملزمون بتسليمها ما زرعوا، بالسعر الذي تقرّره، بالصنف الذي يصنّفه المخمّنون لديها، أي أنّها تنهب الفلّاح، وبعد تصنيع التتن سكائر، تفرض السعر على المستهلك، فتنهبه أيضًا.. يرضيك هذا؟

ـ لا يرضيني بالطبع، ولكن ماذا نفعل؟.. نقاوم فرنسا؟

توقّف الآغا وقال:

ـ نحن لا نقاومها، بالعكس، هي التي تقاومنا، تمنعنا من حقّ التصرّف بمحصولنا، يعني تعتدي علينا، فهل نحن نساء حتّى نسكت على اعتدائها!؟ مع ذلك أنت لا علاقة لك بهذه المسألة، لا تشارك بالتهريب وتأخذ حصّتك منه.. ماذا تريد أكثر؟ اذهب وشاور زوجتك.. شاورها لرفع العتب، كما يفعل الرّجل!

عاد الوالد إلى البيت، نقل حديث الآغا إلى الوالدة بحضورنا، اربدّ وجهها، قالت بشكّ كبير:

ـ إذن هذه هي الغاية من إكرامنا!؟ يكرّمنا ليحوّلنا إلى قطّاع طرق!؟ إلى مهرّبي دخّان!؟ لا! يتركنا وحالنا يسمح لنا بمتابعة السفر، ونحن نتدبّر أمرنا!

ـ قال الوالد:

ـ لكنّها ضربة العمر!

زعقت الوالدة:

ـ ضربة الموت! تموت أنت، أترمّل أنا، يتيتّم الأولاد.. نضيع! إيّاك يا سليم إيّاك..

ـ وإذا أصرّ الآغا!

ـ نصرّ على الرّفض، ونسلّم أمرنا لله، نهرب من هنا.

لكنّنا لم نهرب، الآغا لم يرفض الرّفض.. تقبّله بصدر رحب، كلّ ما قاله: «يا خسارة!» أضاف: «قد نلتقي في المستقبل، قل للعائلة أن تطمئنّ، سأوصلكم إلى أنطاكية غدًا، محفوظين بالسلامة». وفي ليلة السفر قام بواجب الضيافة، قدّم لنا عشاءً فاخرًا، أعدّ لنا زوّادة تكفي ليومين، أرسل خديج، الذي تشفّعت له أمّي، فأحضر عربة يجرّها بغل، تتّسع لنا ولأمتعتنا القليلة، وضع في جيب الوالد، بشكل حاسم لا يردّ، بعض النقود، وبعد الإفطار صباحًا، هيّأ له مؤونة من التتن المفروم، أرسل من يرافقنا حتّى لا يتعرّض لنا أحد من قطّاع الطرق. وباحترام كبير، عند المسير، انحنت الوالدة لتقبّل يده فسحبها، قال لها:

ـ كلّ ما فعلته لأجل الخال برهوم، ولأجل الأولاد. أنت، يا مريم، ضيّعت على زوجك فرصة لا تعوّض.

قالت الوالدة باكية تأثّرًا:

ـ لا نعرف كيف نشكرك يا آغا، أنقذتنا من الموت، أنزلتنا في بيتك، أكرمتنا أكثر من الخال برهوم لو كان حيًّا!

قال الآغا:

ـ الشكر لله أوّلاً وأخيرًا يا مريم، هل أنت راضية عن خديِّج الآن؟ ألا تخافين منه في طريق السّفر؟ ألا يمكن أن يغدر بكم؟

ـ بوجودك سيساعدنا بقدر ما يستطيع، ألم أتشفّع له أنا بالذّات؟

ـ شفاعتكِ كانت في محلّها.. أن نخطئ فنحن بشر، ولكن أن نتوب عن أخطائنا فنحن أوادم.. أنت حرمة، وغريبة، وفقيرة لله مثلنا، لكن شكّك زائد عن اللّزوم، وصل إلى حدّ الشكّ بنواياي، سامحك الله.

قالت الوالدة بندم حقيقيّ:

ـ أعترف، يا آغا، أعترف!

ـ وأنا أسامح، والمسامح كريم في شرعنا.. مع السلامة.

ـ ولكن ليس قبل أن يقبّل يدك الأولاد، وقبل أن تقبل قطعة الحرير القزّ هذه، لأجل قميص لك.

قَبِل الآغا الهديّة، قبّلنا يده بالدّور. رفعني بين يديه، قبّلني. بدأنا المسير، سرنا، توارينا عن أنظاره..

.. وكان هذا آخر العهد به!

.. وكان هذا آخر عهدنا بالسويديّة!

مقتل ابن المختار.. بسبب الضوء!

كان الآغا، أو أبو علي السبع كما يلقّبونه، سبعًا حقيقيًا، كان قاطع طريق، إلّا أنه، في شمائل الرّجولة، كان رجلاً أكثر من بعض الأثرياء والمتنفّذين، الذين يقطع عليهم الطّرق ويشلّحهم؛ ولم يكن الخال برهوم، هذا الذي أنقذنا مجرّد ذكر اسمه، وكونه خال الوالدة، قد ذكر لها أنّه يعرف شخصًا باسم علي دعموش، وهو الاسم الحقيقي لأبو علي السبع، وربّما كان الخال، الذي تاب عن قطع الطرق على النّاس، قد تاب أيضًا عن ذكر أسماء قطّاع الطرق الذين يعرفهم، ولعلّ هذا التكتّم عليهم يدخل في باب الأسرار الممنوع، أو غير الجائز، إفشاؤها، خشية أن تعلم بها السلطات الفرنسيّة، أو يعلم بها الدرك الذين لهم مركز في أنطاكية، وآخر في السويديّة؛ وأقدّر الآن، بعد عملي في النضال السرّي ضدّ المحتلّين الفرنسيين، أنّ إفشاء مثل هذا السرّ يعدّ خيانة. ولم يكن الخال برهوم، في زهو رجولته وصلابة أمانته، ليفشي سرًّا اؤتمن عليه، ولو أدّى به ذلك إلى التعذيب فالسجن. من أجل ذلك، ربّما، كان له خاطر عند قطّاع الطرق، وكانت له هيبة، ولم ينسه أبو علي

السبع، بل أكثر من ذلك أراد إحياءَهُ.

ماذا كان يدور في رأس هذا الرّجل؟ إنشاء «إمبراطوريّة» لقطّاع الطرق يرأسها هو؟ توسيع، وتنويع، أعماله؟ تهريب المخدّرات إلى جانب تهريب التّبغ؟ السيطرة على المنطقة الممتدّة بين السويديّة وأنطاكية؟ جمع الرّجال والسلاح للقيام بانتفاضة ضدّ الفرنسيين؟ معاقبتهم على تخريبهم صناة تربية دود الحرير، وتاليًا حلّ الشرانق ونسجها وبيعها؟ إنّ تفكيره بإحياء الخال برهوم، وطلبه إلى الوالد أن يلعب دور هذا الخال، كي يوهم المنطقة أنّ الخال برهوم حليفه، فيه أكثر من بعد في التفكير، وأكثر من هدف قابل للتحقّق.. إلّا أنّ الوالد لم يوافق، استجابة لضغط الأمّ في رفض طلب الآغا، وقد رفض الوالد ولم يعترض الآغا، أسف فقط، كان آسفًا لأنّ الوالد فوّت عليه فرصة، هي في صالحهما معًا. ولعل الآغا، وهو يقبل اعتذار الوالد، كان يفكّر بغيره، بأيّما رجل شجاع، ليست لديه مسؤوليّات عائليّة، شرط أن يكون من مركز اللوشيّة في السويديّة، وأن يكون على معرفة بالخال برهوم كي يحسن تقليده، والنهوض بدوره على النحو المطلوب، وهذا ما حزره الوالد، عندما قال للأمّ:

ـ رفضي القيام بدور الخال برهوم، خسارة لي وحدي، لأنّ غيري، من أقرباء أو معارف الخال برهوم، يتمنّون القيام بهذا الدّور، وسيقومون به لو طلب الآغا ذلك من أيٍّ منهم.

قالت الأمّ:

ـ تظنّ يا سليم؟

قال الوالد:

ـ بل أعتقد وأجزم!

ـ وماذا يفيده الخال برهوم أمام شراسة قطّاع الطّرق؟

ـ الآغا يحتاج إلى سند، أبو علي السبع لا يخاف إلّا ربّه، لكنّ السبع بالسبع يتقوّى، الخال برهوم كانت له مزيّتان: مركزه «في اللوشيّة» أوّلاً، وصيت شجاعته في المنطقة كلّها ثانيًا، كان، كما يقول الآغا، بسبعة أرواح، جسمه تخرطش ولم يمت، يعرف متى يختفي ومتى يظهر، وكلمته في اللوشيّة لا تصير اثنتين، إذا قال «فلان لا يدخلها!» معنى هذا أنّه لا يستطيع دخولها، وفي هذه الحال أين يشتري ويبيع؟ تعرفين قصّة المختار لطف الله مزّق؟ كان هذا داهية زمانه، باصوص الأمير لم «يطلع معه رأس»! من تحسبين أخذ بثأر ابنه جرّوس؟

ـ الخال برهوم؟

ـ نعم! الخال برهوم.. مقتل جرّوس، الابن البكر للمختار مزّق، كسر ظهر والده.. كان مزّق، على حياة ابنه جرّوس، يحمي الناس، وبعد مقتل الابن صار الاب المسكين بحاجة إلى مَن يحميه.. وهنا لجأ إلى الخال برهوم.

العربة التي يجرّها بغل كانت تسير في طريق وعر، ملأى بالحفر، لم تعرف التعبيد يومًا، وعلى جانبيها الأشجار والأدغال، وراءها البساتين، وعند كلّ منعطف خطر مفاجأة ما، قاطع طريق ما، عصابة من قطّاع الطرق، لا تعرف الرّحمة، لا تتعامل مع أيّ عقيدة أو مبدأ، شعارها السلب أو

القتل، لا يهمّ في اللّيل أو النهار، تتجمّع، تتفرّق، تتربّص كقطعان ذئاب جائعة، تهاجم حتى المسافرين الذين يستأجرون المسلّحين لحمايتهم، ولكلّ عصابة عقيد، يدعونه الآغا، وهؤلاء الأغوات، الذين تزعّموا عصاباتهم بعد معارك ودماء، لهم كلمة مسموعة، وعيون مبثوثة، لا يفلت من أيديهم إلّا الذين كتبت لهم السلامة؛ وهم، في عام الهجرة والجوع هذا، ينهشون دونما رأفة، يستولون على المال، المؤن، الأثاث، يستبيحون الحرمات.. والويل للمرأة الصبيّة، الجميلة، فإنّ مصيرها السبي، دون تفريق بين عذراء وثيّب، دون اعتبار إلّا للجسد والمال، فإذا لم تسبَ اغتصابًا، وإذا لم تقتل في حال مقاومتها، فإنّها تؤخذ رهينة، على ذويها أن يدفعوا الفدية المطلوبة، خاصة إذا كانوا من الملّاكين أو الأثرياء؛ وثمّة حكايات لا تعدّ حول أمثال هذه الانتهاكات، وأهمّها احتفاظ كلّ آغا بالمرأة التي تروق له، وكانت المرأة البيضاء البشرة أكثر إيثارًا، وأفضل في الاصطفاء كزوجة أو خليلة!

العربة التي وضعها الآغا أبو علي السّبع في تصرّفنا، لتوصلنا إلى أنطاكية وتعود، انطلقت بنا مع شروق الشمس.. في هذا الوقت تكون الطريق أكثر أمانًا، وكنت مع الأمّ والأخوات نستقرّ فيها خائفين، جالسين فوق أمتعتنا، وخديج الحارس يمشي، والبندقيّة في كتفه، أمام العربة، ويمشي خلفها الوالد، وهي ترتفع، تنخفض، تتأرجح، تميل يمينًا، يسارًا، تطقطق تمضي بصعوبة، وبقوّة جرّ البغل العجوز، المتعب من شدّة ما قاسى في حياته، المحتاج إلى الرّاحة، بعد كلّ مسافة، خوف أن يسقط إعياء، أو يموت إذا ما ازداد الضغط عليه.

وعند نبع ماء يسيل من خاصرة جبل، اقترح خديِّج أن نتوقّف، كي يستريح البغل، فيشرب ويأكل عليقه من التبن والشوفان، ويصبح قادرًا على مواصلة السير، وكي نستريح نحن، خديِّج والوالد خصوصًا، فنشرب ونأكل من الزوّادة التي معنا، ما دام الطقس الخريفيّ مؤاتيًا، وفي النهار متّسع لبلوغ أنطاكية التي نقصدها.

ترجّلنا من العربة، ركنّاها على جانب الطريق، ففكّ خديِّج أحزمة البغل، منحه فرصة للتصرّف بحرِّيَّة، لرعي الأعشاب الخضراء واليابسة، للتملّح من بعضها، كي تصبح شهيّته أفضل بعد ذلك، وهذا ما شرحه لنا الوالد، بينما كنّا نجلس حول النبع في بسطة بين الأشجار، والوالدة تسأل:

ـ ماذا بشأن الحمار يا سليم؟

ـ في حال أفضل من حالنا!

ـ لو سلّمناه للآغا لاهتمّ به.

ـ الآغا ليس له وقت للاهتمام بالحمير!

ـ ومن يهتمّ به إذن؟

ـ زوجته التي هي مثل أفضالك!

ـ تقصد أنا حمارة؟

ـ أقصد أنّك كثيرة الغلبة!

ـ يعني؟

ـ اسكتي أفضل لك.

سكتت الوالدة على مضض، كان والدي يروي لنا، ولخديج معنا، قصّة المختار مزّق وفجيعته بابنه جرّوس، وكان لا يحبّ، هو الماهر في القصّ، أن يقاطعه أحد، لما في ذلك من دلالة على النشاز في السماع، أو عدم الاندماج في ما يقصّه الوالد، وهذه خطيئة في عرفه لا تغتفر، وقد تألّمت أنا لأنّه أسكت والدتي بهذه الفظاظة، إلّا أنّه لم يبالِ، وتابع قائلاً:

ـ في إحدى اللّيالي، كان المختار لطف الله مزّق وعائلته في البيت، كانت السماء تمطر، والبرد شديد، والشتويّة القاسية، حبست الناس في بيوتهم، وفجأة قُذف قرميد بيت المختار بحجر، فتكسّرت قرميدة أو أكثر، وقد حسب المختار وأهل بيته أنّ المسألة عابرة، لا تعدو أن تكون إحدى الولدنات، إلّا أنّ الحجر الثاني أقلقهم، وعند سقوط الحجر الثالث، بعد دقيقة أو اثنتين، تأكّدوا أنّ الفعلة مقصودة، وفي نخوة الشباب واندفاع الشجاعة، تناول جرّوس، ابن لطف الله، بندقيّته وخرج، لكنّه لم يكد يفتح الباب حتّى انهال عليه الرّصاص، فتكوّم قتيلاً على العتبة من الخارج، وللحال تعالت الأصوات، ودوى الرّصاص في اللوشيّة، ولم يستطع أحد اللّحاق بالقتلة، أو القبض على أيٍّ منهم.. كان الحادث مدبّرًا، من أعداء المختار مزّق، الذين كانوا يعرفون أنّ الغدر هو الطريقة الوحيدة لقتل هذا المختار الداهية، إلّا أنّ المختار سلم، وقتل ابنه البكر، زينة شباب السويديّة، المعروف بشجاعته وأريحيّته، المندفع في الشدائد، المتهوّر لأنّه لم يكتسب بعض دهاء والده!

قالت الأمّ وهي تبكي:

ـ يا ضياع الشباب، الله يساعد قلب أمّه المسكينة.

قال الوالد:

ـ الله يساعد والده، الذي كانت خسارته لا تعوّض.. من ذلك اليوم لم تقم للمختار مزّق قائمة.. ابنه، بطيشه، اغتاله.

ـ قتله؟

ـ يا حرمة، يا مريانة، جرّوس قتل والده.. هذه حقيقة!

ـ أطلق عليه النار؟

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. جرّوس مات، ووالده حيّ، فكيف يطلق الميت النار على الحي؟ القتل، هنا، بغير الرّصاص.. حين خرج جرّوس من الباب، كان والده يصيح: «أطفئ الضوء أوّلاً!» غير أنّ جرّوس لم يسمع، لم يتمهّل ليسمع، اندفع، تهوّر، دفع روحه ثمن تهوّره، ودفع الوالد، ثمن تهوّر الابن، مكانته في اللوشيّة.. لولا الخال برهوم.. لكن يكفي.. هذه قصّة أخرى، طويلة، ليس هذا وقتها.

قال خديِّج وهو ينهض:

ـ القصّة الأخرى، في الاستراحة الأخرى..

فسألته بسذاجة:

ـ ومتى نصل إلى أنطاكية إذن!؟

ـ ولماذا أنت مستعجل؟

ـ لأنّني . .

قال خديِّج:

ـ خائف!

وضحك، بقهقهة، من خوفي!

متعة القصّ تؤخّر.. السّفر!

لم تكن أنطاكية بعيدة عن السويديّة، ولم تكن قريبة أيضًا، اقتلاع الرّجل من وحل الطريق كاقتلاع شوكة من الإصبع، ورغم الصحو الخريفيّ، في ذلك اليوم من سفرنا مشيًا إلى مدينة كبيرة، أو هكذا تخيّلتها، فإنّ لسعة البرد كانت تعطي لفاكهة الشتاء، التي اسمها النار، متعة من نوع خاصّ، وكان الوالد يقول:

ـ لم يبق بيننا وبين صخرة بطرس إلّا رمية حجر.

وكانت الوالدة، المؤمنة حتّى أطراف أناملها، ترسم الصليب على صدرها كلّما ذُكر القدّيس بطرس، أو أيّ قدّيس من الذين لا عدد لهم، على مدار السنة.. ولأنّني طُلَعَة بطبعي فقد قلت للوالد:

ـ لا أريد الذهاب إلى صخرة بطرس!

قالت أمّي:

ـ ارسم الصليب على صدرك كلّما سمعت كلمة بطرس!

قال الوالد:

ـ لو سمع حنّا نصائحك لأصبح قدّيسًا بدوره، أو أصبح، على الأقلّ، الخوري حنّا!

برطمت الأمّ:

ـ لا تكفر يا رجل فنحن نمشي تحت رحمة السماء.

ـ وبحراسة خديِّج سنصل، إن شاء الله، سالمين.. الصخرة المباركة تنتظر موكبنا الأميريّ!

ـ تهزأ من الصخرة؟

ـ لا! من قلّة عقلك.. الخوري، يا مريانا، لابدّ أن يكون متعلّمًا، كي يفكّ حروف الإنجيل في القدّاس!

ـ وحنّا سيفكّ الحرف.. عندما يكبر!

ولأنّني لم أفهم ما يقال، ولا كنت مباليًا بفكّ الحرف، أو بالخوري الذي يقرأ الإنجيل في القدّاس، فقد سألت، بينما خديج يكدن البغل إلى العربة:

ـ أين تقع مدينة الصخرة هذه!

وبعد أن ضربت الأرض بقدميّ كما يفعل الطفل احتجاجًا، قلت:

ـ لا أريد الذهاب إلى مدينة الصخرة هذه.. أريد الذهاب إلى أنطاكية.

أيّدني خديِّج:

ـ نعم يا عمّ سليم! أنا مكلّف من الآغا بإيصالكم إلى

أنطاكية فقط.. لا إلى مدينة الصخرة اللّعينة هذه!

صفقت الأمّ خدّيها بكفّيها وقالت خائفة:

ــ يا ويلنا من حرّ غدٍ.. كلّ شيء ولا الكفر يا خديج، يا ابني، استغفر القدّيس بطرس!

ضحك خديِّج، واصل إعداد العربة، قال:

ــ ما نوع بندقيّة بطرس هذا، وكم خرطوشة معه!؟

ــ يا ساتر!

قالت الوالدة، أضافت والخوف يتملّكها من غضب قدّيسها:

ــ عفوك يا بطرس الرّسول، عفوك.. قلبي..

قاطعها الوالد نزقًا:

ــ ولا كلمة أخرى يا حرمة.. خديِّج بحسب بطرس قاطع طريق.. الحقّ عليّ.. كان يجب أن أشرح، ولكن كيف أشرح؟ بطرس، يا خديج، واحد من تلاميذ السيد المسيح، وقد قال له السيّد: «على هذه الصخرة أبني كنيستي» وأوّل كنيسة بنيت كانت في أنطاكية بحسب علمي، لذلك يُقال لها مدينة الصخرة، ونحن، بعون الله وهمّتك، ذاهبون إليها.. هذه هي المسألة.

ابتسم خديِّج الذي فهم نصف الكلام، وقال:

ــ وحياة الخضر لم أكن أعرف.. أنا، لا تؤاخذوني، أفهم في البنادق والخراطيش فقط. الآغا قال لي «أوصلهم إلى أنطاكية وارجع..» وسأوصلكم.. هيّا، توكّلوا على الله.

ـ أنت على حقّ يا عمّ سليم.. البغل عجوز، والطريق لعين، والحمل ثقيل.. لابدّ أن نريّحه ونستريح معه، في أوّل مكان مناسب، ، هل نام الأولاد؟

ـ كيف ينامون وأمّهم شوحة تحوّم فوقهم!؟ ملعون أبو السفر إذا كانت معك امرأة!

نبرت الأمّ:

ـ استغفر ربّك يا رجل.. لم أفتح فمي بكلمة!

قال خديِّج:

ـ هذا صحيح يا خالتي!!! العم أبو حنّا تعب لذلك ضاق خلقه.. سنستريح بعد هذه الطلعة.. إيدكم مع إيدي..

ترجّلت الوالدة، صاح خديِّج بالبغل يستحثّه، وضعوا ـ الوالد والوالدة وخديِّج ـ أيديهم على العربة، راحوا يدفعونها لمساعدة البغل العجوز على جرّها، صفّقت أنا وأخواتي فرحًا، طقطقت العربة ذات الدواليب الحديديّة، صعّدت مرتقية الطلعة على مهل، راح خديِّج يحدو، انتخى البغل على صوت الحداء، بذل ما تبقّى له من جهد، قال الوالد بصوت عالٍ: «يا ربّ» قالت الوالدة بدورها: «يا عذراء مريم».. وبعد دقائق تنفّس الجميع الصعداء: العربة وصلت إلى آخر الطلعة، لم يبق سوى الانحدار على الطريق، في منبسط سهليّ، وإذا بطلقات ناريّة، وصوت ملثّم يزعق:

ـ لا تتحرّكوا!

لم نتحرّك. . برز رجل غير ملثّم، برز آخر، بقي رجلان بين الأشجار يمسكان ببندقيّتين في وضع إطلاق. قال الرّجل الملثّم:

ـ لمَنْ هذه العربة وماذا فيها؟

قال خديِّج الذي هزّته المفاجأة:

ـ العربة للآغا، وهذه العائلة الفقيرة في حمايته. . اتركونا نمرّ.

ـ ليس قبل أن تدفعوا، أو نأخذ ما في العربة.

قال الوالد:

ـ الأفضل لكم أن تتركونا نكمل طريقنا.

صاح رجل منهم:

ـ تهدّدنا يا عرص!؟

ردّ الوالد المعروف بنزقه وشراسته:

ـ أنا لا أهدّد، ولكنّ الآغا. .

قاطعه:

ـ أيّ آغا؟

قال خديِّج:

ـ أبو علي السّبع!

أضاف:

ـ وهذه الحرمة بنت أخت الخال برهوم!

ـ تقسم على المصحف.

ـ أقسم على المصحف الكريم، وأحلف بالله العظيم..

فكّ الملثّم كوفيّته وقال مقاطعًا:

ـ بس!.. صدّقناكم. ولكن على شرط، أن تكونوا ضيوفنا.. كيف الخال برهوم؟ وكيف الآغا أبو علي؟

ـ بخير.

ـ إذا كان الخال برهوم بخير، والآغا بخير، كلّنا بخير.. تفضّلوا انزلوا..

ونزلنا!

القميص اللّيلكيّ.. والأرمل الشجاعة

كنت بين الخامسة والسادسة من عمري، وكنت أنوس بين الحياة والموت كذبالة قنديل واهنة، قادرة أيّما عاصفة ريح أن تطفئها. . فقد ولدت صبيًّا مشحوذًا من الله، بعد ثلاث بنات، وبعد ضياع، أيّام السفر برلك، في متاهات الأناضول، وستقول لي أمّي، إثر إبلالي من مرض التيفوئيد في مدينة اسكندرونة: «لقد استجاب الله لدعائي مرّة ثانية، فأبقاك لي كي يعزّيني عن عذابي في هذه الدّنيا، فشكرًا له ثلاثًا» وكنت أعلم قبل هذا، أنّ أمّي، في مدينة مرسين التركيّة أو في ريفها، كشفت رأسها، ذات ليلة، ووقفت تحت السماء مبتهلة، سائلة ربّها أن يرزقها بصبي أو يأخذها إليه، فكانت الاستجابة للدعاء بشكل مفرح، إذ ولدت أنا، بعد بنات ثلاث وبكاء ثلاثي المرارة، ولم يقبضها إليه تعالى، فبقيت لتقضي عمرها وهي خائفة أن يتخطّفني الموت، بسبب اعتلال صحّتي جسديًّا ونفسيًّا، حتّى أنّ أختي نظرت إليّ في صغري، وقالت في وجهي «هل ستكبر يومًا وتصير بشرًا، وتستطيع أن تعمل وتربّي عائلة؟ أكاد لا أصدّق، يا حسرتي!» وخالفت هواجس أختي

وكبرت، أي صرت بشرًا على النحو الذي تعرفون، والذي أنا عليه.. وصار لي عائلة منها ابني سعد مينة، الممثّل الذي في سنوات، اشتهر أكثر منّي بعد جهاد خمسين عامًا مع القلم والحرف، لأنّه عمل على الصورة المرئيّة في التلفزيون، وعملت على الكلمة المرسومة على الورق، والفارق، كما تعلمون كبير!

المهمّ أنّني، كما قلت مرارًا «ولدت بالخطأ، ونشأت بالخطأ، وكتبت بالخطأ».. ولا أزال، حتّى يومنا، أكتب بأخطائي، ولأخطائي، مشفقًا، حدبًا كالمعرّي، وأنا في كلّ مناسبة أنصح أولادي وقرّائي قائلاً: «لا تتبعوني على طريق جهنّم!» فالكتابة، لمن أدركته حرفة الأدب في هذا الوطن العربي، هي جهنّم حقيقة ومجازًا، وقد ارتضيتها مهنة، بعد أن عملت في «أربعين» مهنة غيرها ولم أنجح!

إذن، كنت بين الخامسة والسادسة من عمري، ورغم اعتلال صحّتي، متفتّح المشاعر الحسيّة على نحو طفوليّ، ومبهم جدًّا، أتذكّره الآن وأبتسم من حمق بليت به، وأتصوّر هذا التفتّح الطفوليّ مرتسمًا على قميص نوم ليلكيّ، لامرأة جارة في بلدتي الأولى السويديّة، كانت تخرج من بيتها في الضحى، لتشرب القهوة أمام الباب والبستان، وإلى جانبها كلبها الأصهب، وحمارها طحينيّ اللّون.. ومن حين لآخر تتثاءب، كأنّها لم تشبع نومًا، أو ربّما كانت تتريّض في الفضاء، بعد أن تريّضت في الخفاء، وكانت نسمات الصباح الشقيّات تأتي لتزيح القميص عن إحدى الركبتين، فلا تكلّف نفسها عناء ردّ القميص

إلى مكانه، تاركة للركبة البيضاء، البضّة، الرخصة، أن تتنفّس الهواء الطلق، غير مبالية بي أنا الصغير، لأنّها، كما يخيّل إليّ الآن، ما كانت تظنّ، أنّ ولدًا طفلاً، تستيقظ حواسه على الشكل المبكر الذي استيقظت فيه بعض حواسّي، أو أنّها، بالرّغبة الكامنة في الأنثى، كانت مباهية بأنوثتها، بدفع من خبث اللّاشعور، تستثير، على طريقتها، حواسّ ما حولها من شجر وزهر وأنوع من الخضرة اليانعة. ولم أكن، في مدى التخيّل، أحسب أنّ يومًا سيأتي، وقد أتى، أسمع فيه فيروزنا الرائعة، بصوتها الضوئيّ الملمس، تغنّي: «حسبونا ولاد صغار، وتركونا في الدار، ودارت فينا الدار، نحن ولاد صغار!»

المهمّ أنّني كنت طفلاً، وكنت صغيرًا وعليلاً، وكانت العلّة الأولى في جملتي العصبيّة، وستشقيني علّتي طويلاً، بتفتّحها على المجهول قبل أن يصير معلومًا، وأثر هذا التفتّح في حساسيّتي المفرطة، وما أعاني منها، وأكابد من أمرها، دون أن أدعها تستعلن، ففي هذه الرسالة أو تلك من قرّائي، وهذا السؤال أو ذاك من أصدقائي ومعارفي، يتردّد أبدًا هذا الاستفسار: «أليس لك نزوات كسائر الكتّاب!؟» بلى! لي نزواتي، والنفسيّة خصوصًا، ولكن بماذا ينفع الحديث عنها؟ وأيّ إثمار يكون في الحديث حولها؟ من الأفضل، في رأيي، ألّا نقتل الحبّ في الحديث عنه، وألّا نُبْئِس المعاناة بالجهر بها، وأن ندّخر، وسع الطاقة، ما بنا في ذواتنا، وألّا نستعجل أو نيأس، لأنّه، كما قال الشاعر الياس أبو شبكة للمرأة: «لا تقنطي إن رأيت الكأس فارغة / يومًا، ففي كلّ عام ينضج العنب»، ويبدو أنّ عنب نزواتي لم ينضج الحديث عنه بعد.

يكفي أن أقول إنّني أحببت جارتي. . أحببتها لأنّها، كما كنت أتصوّر، جميلة، وأحببت ركبتها لأنّها كانت بيضاء، وأحببت حمارها لأنّه لم يكن أسود، ولم أحبّ كلبها، ولا أحبّ أيضًا جميع الكلاب، بكلّ قوائمها، وبصرف النظر عن عدد بعض هذه القوائم، فهذا من الطبع، والطبع، كما يقولون، غلب التطبّع. ويبدو أنّ جارتي، التي كنت أرصدها في أصباح الصيف، قد لفتها إليّ بطريقة ما، فنادتني إليها، هي الغنيّة المترفة، مناداة فيها عذوبة الصوت وغنّته. . ولمّا ذهبت إليها، بثيابي الرثّة، وجسمي الهزيل، ونظراتي الحادّة، النافذة والخاطئة، استغربت حالي، قل أشفقت عليّ، مسّدت شعري براحتها، أدنتني منها قليلاً، سألتني عن أهلي، عن أبي وأمّي وأخوتي. . قدّمت لي الطعام فرفضت، حاولت إعطائي نقودًا فأبيت. . نظرتُ، فقط، إلى ركبتها، كان الهواء قد شمّر طرف قميص النوم عنها، وكان بياضها مبهرًا، موردًا من عافية ونضارة. . وبحركة عفويّة، أخذت رأسي بين يديها، وبعد ذلك وضعته على ركبتها، وعندئذ، للمرّة الأولى بعد عنق أمّي، اشتممت الشذى في الركبة. . لكنّني، واأسفاه! لم أجرؤ، من حياء يلازمني، تقبيل الرّكبة، فبكيت، بصمت، فوقها!!

وبقدر ما أحببت الجارة صاحبة القميص اللّيلكيّ، كرهت للوهلة الأولى، جارتنا الأرمل الشجاعة، فقد كانت، كما يبدو، تراني واقفًا في آخر حقل التوت، أرنو بعينين طفليّتين إلى ركبة صاحبة القميص، راصدًا لعبة الهواء مع ذيل قميصها، وبدافع الفضول الأنثويّ، راقبتني لأيّام، فأخذتها الغيرة لأنّني ذهبت إلى المرأة الجميلة، ووضعت رأسي على ركبتها، كأنّما

أنا ابنها هي العاقر التي لم تنجب، وكأنّما هذه المرأة تغريني، وقد تخطفني لأكون ابنها.

أمّي البسيطة، الطيّبة، سُرّت عندما حدّثتها عن زيارتي لجارتنا الثريّة، ولعلّها أملت خيرًا من وراء هذه الزيارة إذا ما تكرّرت، غير أنّ الأرمل الشجاعة دسّت لها الوسواس في صدرها، محذّرة من عاقبة أمثال هذه الزيارات المشبوهة لامرأة عاقر.. فخافت الأم، وكنت وحيدها، أن أنجذب، بدافع ما، إلى جارتنا صاحبة القميص، وأن تسرقني بطريقة ما، فتخفيني في بيتها، أو تأخذني وتسافر إلى أنطاكية، وعندئذ تكون، أو تحلّ، المصيبة الكبرى، ومجرّد فكرة كهذه، ولو كانت بعيدة، وربّما مستحيلة الحدوث، أرعب الوالدة، التي حاولت استدراجي لمعرفة الإغراءات التي تدفعني إلى التعلّق بهذه المرأة، مذكّرة إيّاي بأنّ الكذب هو خطيئة مميتة.

لم أكذب طبعًا، إلّا أنّني لم أقل شيئًا عن الرّكبة وانشمار ذيل القميص اللّيلكيّ عنها، وعن رائحة الأنوثة التي في هذه الركبة، والرّعشة التي أخذتني وأنا أشتمّها. كنت، بدافع خفيّ، راغبًا عن الإفصاح، بله الكلام الحقيقيّ، حول مشاعري من هذه الناحية، مضمرًا التمرّد، لو أرغمت على الإقلاع عن «زياراتي المشبوهة» للمرأة الجميلة، إلى أن جاء يوم، اصطحبني فيه والدي لزيارة الجارة الأرمل، حيث أصابتني رعشة أخرى، غير لذيذة وسعيدة هذه المرّة، جعلتني أنفر منها، إلى أن وقع حادث ضياع الأمّ، في يوم عاصف، عبر حقول التوت المجاورة.

كان والدي يبحر في قاربين: المرأة والخمرة، ولم تكن الأمانة الزوجيّة واردة في قاموس نسيانه الأبديّ، ويبدو أنّه كان على علاقة بالجارة الشجاعة، التي مات عنها زوجها وهي في نضج العمر، فعلقت في شباك الوالد ضيّقة الفتحات، ولم يكن اصطحابه لي في زيارتها إلّا ذريعة، ومع أنّها رحّبت بي، قبّلتني، أعطتني بعض التين والجوز كرشوة، إلّا أنّها طلبت منّي أن ألعب مع أولادها خارج البيت، مختلية بالأب صاحب الشفة السمراء الشهّاء، ومن حيث وقفت عند طرف الباحة، سمعت صرخات صغيرة، مريبة، وضحكات فيها غير المألوف من الضحك، التقطتها أذناي اللّتان تفتّحتا على إحساس غريب، مصدره ركبة المرأة صاحبة القميص، ممّا أوهمني أنّ والدي يدغدغ ركبة المرأة الأرمل عندما تضحك، ويقرصها حين تصرخ، وأنّهما يفعلان شيئًا لا يجوز أن أراه، وهذا ما أشعل شمعة في أعصابي المتوفّزة، أعقبتها التماعة غير بريئة، تعاورتها اللّذّة والكراهية: فكدت أطرق الباب، مناديًا والدي للخروج والانصراف إلى البيت، دون انتواء أيّ كلام على ما جرى لوالدتي، لا خشية من أبي، وإنّما، كما كان يخيّل إليّ، حتّى لا تعرف أنّ ابنها الصغير تفتّحت حواسّه غير المرضيّة، وشرع يدرك الخير من الشرّ.

كرهت جارتنا الأمل، من غير فهم للغيرة التي كانت مصدر هذا الكره، ربّما كنت في اللّاشعور راغبًا في دغدغة، تمسيد، تلك الركبة المتخيّلة، كما قدّرت أنّ والدي قد فعل، وربّما تمنّيت، في اللّاشعور أيضًا، أن يصطحبني كرّة أخرى إليها، لأسمع ما سمعته مرّة أخرى، غير أنّ والدي أتاه، من جديد،

نداء الترحال فلبّاه، تاركًا العائلة، الأمّ خصوصًا، ترتجف في ظلمات اللّيالي من فقر وخوف وفقدان الأمل في أن تتبدّل الحال التي نعاني ويلاتها.

ولمّا خرجت، ذات يوم عاصف، مغرّزة في الوحل، متحمّلة الرّيح الزمهرير، قاصدة دكّان المختار للاستدانة، للحصول على شيء من طحين وشيء من أدام، كيلا نبقى جياعًا، طالت غيبتها أكثر من المألوف، واشتدّت العاصفة بشكل غير مألوف، ويئسنا من عودتها فخرجنا، أخواتي وأنا إلى العراء، نخترق بعيون دامعة اكفهرار الجوّ، عسى نقع للوالدة التي ننتظرها على أثر، إلى أن رأينا الأرملة، الجارة الشجاعة، صديقة والدي وعدوّتي، تحمل أمّنا على ظهرها وتتقدّم ببطء نحونا، مارقة بين أشجار التوت، باذلة كلّ طاقتها للنهوض بحملها، ولمقاومة المطر والرّيح والبرد القارس، في جوّ قمطريريّ لم يسبق لنا أن رأيناه، بعد أن سمعت، وهي أمام بيتها، استغاثات الأمّ المنهارة بعد نفاد قواها، إثر خيبتين: خيبة الحصول على طعام، وخيبة الصحو الذي تحتاجه في طريق أوبتها إلينا.

في ذلك اليوم، أمام بسالة الجارة، معجزتها في إنقاذ الأمّ من أشداق الرّدى، نسيت كرهي لها، نسيت ما عانيته جرّاء صرخاتها مع والدي، نسيت ركبتها، غفرت لها، أكبرتها، أحببتها، أسرتني شجاعتها، ركضت إليها، ارتميت في حضنها، وبدلاً من تقبيل ركبتها قبّلت يدها، يا إلهي! كم قبّلت يدها، وكم بكيت على صدرها، وكم عانقتها، راغبًا في

أن أركع أمامها، طالبًا صفحها ومغفرتها.

من قال إنّ القبلة على اليد، أحيانًا، ليست أكرم من القبلة على الرّكبة، ولو كانت لامرأة!؟

الأمّ الخائفة.. تخترع الخوف!

الاهتمام الذي وجدناه لدى مضيفينا من «قطّاع الطّرق» عملق قامة الآغا أبو علي السبع في نظري. صار، كما في الحكايات التي أسمعها من أمّي، عفريتًا رهيبًا، رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، يستطيع بضربة واحدة أن يقتل أيّ رجل من أعدائه، وبكلمة واحدة، أيضًا، يصعق هذا أو ذاك من رجاله، وقد تشكّل لديّ إحساس طفوليّ عنه، يمتزج فيه الودّ بالرهبة، الإعجاب بالدّهشة، ولو كنت في ذلك العمر قد سمعت بكلمة الأسطورة، وعرفت معناها، لقلت عنه إنّه أسطورة، وفي هذا القول تلخيص وتجسيد لذلك الإحساس.

الخال برهوم نوع آخر من الرّجال، أكثر طيبة وأشدّ حزمًا. عرفته حين أخذتني أمّي معها إلى بيته في اللوشيّة، ترافقها الأرمل جارتنا، وأمّي، بحنانها، خوفها، رجائها الموضوع في هالة العذراء مريم، تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، متردّدة، بائسة، مسكينة، على خشية دائمة من المجهول، تدفعها الأرمل، تشجّعها، تقول لها: «الخال برهوم قريبك» فتجيب الأمّ: «لكنّه لا يعرفني».. وتردّ الجارة: «سيعرفك، قولي له مَن أنت

وسيعرفك». وفعلاً عرفها الخال برهوم، قال لها: «أنت ابنة أختي» رحّب بها. . قبّلني، رفعني إلى أعلى، صنع لنا وليمة في بيته. . وبهدوئه المعتاد، المقترن بشجاعة رصينة واثقة طمأنها «سآخذ لك، يا مريانا، حقّك من باصوص الأمير» وفعلاً أخذه، ثمّ جاء إلى بيتنا، حاملاً معه على فرسه بعض المؤونة، وقال لها «لا تخافي، المختار لا يستطيع أن يرهن بنتك مقابل الدين، سآتيك بها». . وفعلاً أتاها بها، وفى بوعده، كان عند كلمته، ساعدنا في حياته ومماته. وها نحن، في هجرتنا من السويديّة إلى أنطاكية، نلقى الرعاية والحماية، لمجرّد أنّه خال أمّي، وها هم قطّاع الطرق يستضيفوننا، لأنّ خديِّج، مرافقنا، زلمة الآغا أبو علي السّبع، وأمّي ابنة أخت الخال برهوم.

في بستان كثير الشجر، يانع الخضرة، مورق، مزهر، أنزلنا أبو الديلم، رئيس الجماعة، في ضيافته. ذبح لنا الدجاج، قدّم الطعام والشراب، وضع زجاجة العرق في منتصف البساط الممدود، قال لنا: «كلوا، اشربوا، أنطاكية أصبحت على شلفة حجر!» علّقت الوالدة: «كلّفت خاطرك يا أبو الديلم، كلّ ما نريده الوصول إلى أنطاكية على ضوء. . نحن غرباء، لا نعرف يها أحدًا، ولابدّ، قبل أن يهبط اللّيل، من تدبير مكان نقيم فيه هذه اللّيلة».

قال أبو الديلم:

ـ بماذا أستطيع مساعدتكم يا أختي؟

قالت الوالدة:

ـ بالسماح لنا بمتابعة الطريق!

أضافت:

ـ أرجوك، لا حاجة للدجاج والعرق.. زوجي لا يشرب!

حدجها والدي بنظرة مواربة وقال:

ـ بلى! أنا أشرب، أشرب.. نستريح، ويأكل البهيم عليقه.

وقفت الوالدة التي تعرف أنّ زوجها يسكر من قدح واحد، وقفنا، نحن الأولاد، تضامنًا معها، جرى كلّ شيء بشكل عفويّ، انقسمنا فجأة إلى فريقين: الوالدة ونحن في فريق، والوالد وخديِّج في فريق آخر، نحن نرغب ونصرّ على متابعة السفر، غير مصدّقين أنّ أنطاكية باتت على «شلفة حجر»، والوالد الرخو أمام العرق والمرأة، يصرّ على البقاء وقبول الضيافة، بينما خديِّج يتبدّى في لامبالاة تامّة، يتسلّى برفع زجاجة العرق إلى فمه المرّة بعد المرّة، إلى أن ينتهي الحوار الدائر ونستقرّ على رأي، وأبو الديلم الكريم، الحريص على إظهار كرمه، كرمى للآغا أبو السّبع والخال برهوم، لا يفهم سبب القهر الذي تعانيه الوالدة، والخوف الذي يتملّكها من أن يسكر الوالد، فيتعطّل السفر ونضطرّ إلى قضاء ليلة أخرى على الطريق!

كنت صغيرًا، كنت حسّاسًا.. عيناي تراقبان، بصمت، كلّ شيء.. روحي تتفهّم، بمشاعر الطفولة، خوف الأمّ، عقلي معها، أعرف أنّ والدي يسكر، يكثر من الكلام ويضحك، فإذا سكر طلب المزيد، إلى أن يعجز عن الوقوف، فإذا وقف ترنّح، سقط أرضًا، وإذا برطمت الوالدة انتهرها، ضربها، ضاحكًا،

بحركة من وجهه، لا أحبّها، محاولاً إزالة خوفنا على الأمّ، صراخنا من أجلها، وقد يضرب هذه أو تلك من أخواتي، خلافًا لما كان يفعله معي، حين يفتح ذراعيه، محاولاً ضمّي إلى صدره، بينما رائحة العرق الكريهة تفوح منه، وقد تخيّلت، ونحن في ضيافة الذين قطعوا علينا الطريق، أنّ هذا الوالد الذي يتعاورني الحبّ والكراهية في أمره، سيضرب من جديد حين يسكر، وأنّه سكران لابدّ إذا شرب، وأنّ عليّ أن أبكي، كما تفعل أمّي، رافضًا البقاء، عازفًا عن الأكل، حتّى لا يتكرّر المشهد إيّاه، الذي رأيته كثيرًا، وتألّمت من جرّائه كثيرًا جدًّا! إنّنا نسافر إلى المجهول، إلى بلد غريب، نحتاج فيه إلى صحو الوالد، إلى يقظته، نشاطه، كي يدبّر لنا مبيتًا، مأكلاً، مشربًا، حماية تحتاجها الأمّ، كما نحتاجها نحن الصغار، وخوفنا أن يسكر الوالد حقيقيّ، مبرّر، أثبتته التجربة، كما أثبتت أنّه إذا رأى العرق، وكان في متناول يده، تُشلّ إرادته، يصبح رخوًا مستسلمًا، غير قادر على المقاومة، لذلك أصرّت الأمّ على متابعة السفر، وأصرّ هو على البقاء، حتّى نستريح، واعدًا ألّا يشرب سوى قدح واحد.

ومع أنّي، في تلك السنّ، في بداية الوعي، لم أكن أعرف ما تعنيه كلمة المرأة، أو مقدار الظلم النازل بها، واضطرارها، مرغمة، على الرّضوخ للرّجل، على تقبّل أخطائه والإذعان لها، فإنّ مرأى أمّي، وهي تُهان من قبل أبي، وتتحمّل بصبر، لأجلنا نحن صغارها، كلّ تصرّفاته السيّئة، كلّ أفعاله عديمة الإحساس بالمسؤوليّة، كان يترك في نفسي أثرًا موجعًا، يدمي فؤادي، ويتمرأى في العينين اللّتين وحدهما كانتا شاهدتين على

ما يجري، خازنتين صور الوقائع، أو بقاياها.

مضيفنا أبو الديلم فهم، بلماحته، الموقف الصعب، الشبيه بالورطة، الذي نحن فيه، وقدّر خوف الأمّ من مغبّة سكر الوالد، فقال لخديِّج:

ـ انتبه يا ابني، تقيّد بتعليمات الآغا أبو علي السّبع، فإذا كان قد أوصاك بإيصال هذه العائلة اليوم إلى أنطاكية، فمعنى هذا أنّ عليك أن توصلها اليوم من دون تأخير.

ردّ خديِّج:

ـ نعم يا أبو الديلم، الآغا أوصاني أن أوصل الجماعة إلى أنطاكية اليوم، لكنّ البغل عجوز، والطريق كما تعرف وعر جدًّا، فماذا أفعل؟ أجرّ العربة بدلاً عنه!؟

ـ أنا لا أقول لك جرّ العربة بدل البغل، إنّما لا تشرب كثيرًا، لأنّك المسؤول عن هذه الرّحلة.

ـ وماذا يعني إذا شربت قليلاً؟ إنّني تعب أنا الآخر.. ثمّ إنّني لا أسكر حتّى لو شربت الزجاجة كلّها.. أم ليس لديكم غيرها!؟

ـ لدينا غيرها بالطّبع، فنحن مثلكم مزارعون، لدينا العنب، ونكرّر العرق في بيوتنا، والخير كثير، وإكرام الضيف واجب في كلّ الأحوال، إنّما.. اسمع.. سأرسل أحد رجالي إلى الآغا أبو علي، أخبره أنّكم ضيوفي هذه اللّيلة، ما رأيك؟

ـ عين العقل!

قالت الوالدة:

ـ لا عقل ولا بلّوط.. أرجوك، يا أبو الديلم، اتركنا نذهب في طريقنا.

قال أبو الديلم:

ـ ممَّ أنت خائفة يا حرمة؟

قال خديِّج مازحًا:

ـ منّي!

قالت الوالدة:

ـ لا أخاف منك أو من غيرك يا خديِّج.. ثمّ لا تنسَ أنّنا أمانة في عنقك.

قال أبو الديلم:

ـ أنتم، الآن، أمانة في عنقي، وسأقطع يد كلّ مَن يسيء إليكم.. يا فتّوح اركض إلى البيت وانده أمّ الديلم، قل لها: «تعالي فورًا، أبو الديلم يريدك لأمر ضروريّ جدًّا!».. وأنت يا أختي.. ما اسمك؟

ـ مريم!

ـ أنعم وأكرم.. تعالي يا مريم واجلسي مع أولادك على البساط.. سيكون الطعام جاهزًا بعد قليل، وستأكل معكم زوجتي تشجيعًا وتطمينًا، كلّنا أولاد آدم وحوّاء.. وإذا كنّا نقطع الطريق على بعض الناس، والأغنياء خصوصًا، فليس

معنى هذا أنّنا تخلّينا عن إنسانيّتنا.. أنا الرئيس هنا، أنا المسؤول، ومن الواجب أن أكون على قدر المسؤوليّة.. هذا هو العرف، وما لقيتموه عند الرّجل الكبير، الآغا أبو علي السّبع، من حفاوة وعناية وتكريم ستلقونه عندي..

أضاف:

ـ أقول هذا لا لأنّ الآغا أبو علي أوصى بكم خيرًا، وأنّ الخال برهوم، صاحب الأفضال علينا، هو خالك، ولكن لأنّ سلوك الريّس يجب أن يكون ريّسًا دائمًا.. أنا، هنا، الريّس، وأنتم، كما قلت، أمانة في عنقي فاطمئنّي.. اشرب يا سليم، اشرب. وأنت، يا خديِّج، لا تقصّر.. أهلاً وسهلاً وألف مرحبًا بالضيوف.

وشرب الوالد على حذر، ومثله فعل خديِّج، وظلّت الوالدة خائفة.. كانت، رحمها الله، تبحث عن الخوف لتخاف، فإذا لم تجده.. اخترعته!

حين ضاع البغل.. ليلاً!

جاءت أمّ الديلم، وهي الزوجة الأولى، وصاحبة الكلمة الأولى، فرحّبت بنا، وعانقت الوالدة مقبّلة، سائلة لماذا الضيوف هنا وليس في البيت، فقال زوجها: «ضيوفنا على سفر، يقصدون أنطاكية، وقد تأخّر الوقت، لذلك وجدت من الأنسب أن يقضوا اللّيلة عندنا، في ضيافتك يا فرعونة، وغدًا صباحًا يتابعون طريقهم، الصباح رباح، والمشي في اللّيل، مع هؤلاء الأطفال، صعب جدًّا، ثمّ إنّهم لا يعرفون أحدًا في أنطاكية، وعليهم، بعد وصولهم إليها، أن يبحثوا عن مكانٍ ينزلون فيه، والبحث في النهار أفضل وأجدى، ما رأيك؟»

قالت فرعونة، المرأة الطويلة، القويّة، المليحة رغم تقدّم العمر:

ـ طبعًا طبعًا يا أبو الديلم، أحسنت في إبقائهم ضيوفًا أعزّاء، وكنت محقًّا في استدعائي.. الاسم الكريم يا أختي؟

قالت الوالدة:

ـ مريانا، ابنة أخت الخال برهوم..

ـ يا هلا يا هلا.. الخال برهوم أخونا، بيننا خبز وملح.. اعتبري نفسك يا مريم في بيتك، وهذا الصغير ما اسمه؟

ـ حنّا، ينادونني أمّ حنّا. وكنت، قبل أن نتشرّف بالمعرفة، أفضّل متابعة السفر، مادامت أنطاكية صارت على شلفة حجر.

ـ شلفة حجر؟ من قال هذا؟ أنطاكية صارت قريبة على الخيّال، وأنتم، يا حسرتي، لا خيل معكم ولا تعتير.. لماذا أنت واقفة؟

ردّ خديِّج:

ـ لأنّها خائفة من قضاء اللّيل هنا!

لطمت فرعونة على خدها برفق وقالت:

ـ خائفة!؟ معقول!؟ ممّ تخافين؟

ـ من العرق! تخاف أن نسكر وهي حرمة بيننا، مع أنّ الآغا، أبو علي السّبع، أوصاني بها، وأرسلني، مع هذه العربة المهرهرة وهذا البغل العجوز، لنقلهم ومرافقتهم إلى أنطاكية! إنّهم أمانة في عنقي، أنا خديِّج، أخلص رجال الآغا.

ردّت فرعونة بجفاء:

ـ أمانة في عنقلك وتسكر يا خديِّج!؟ يا عيب الشوم على الرّجال ما أنذلهم! كان عليك، يا ابني، أن توصلهم إلى البيت ليستريحوا فيه، وبعد ذلك تفعل ما تريد.. هذه هي الأصول، أم أنا مخطئة؟

قال الوالد:

ـ حاشاك من الخطأ يا أمّ الديلم، نحن لا نسكر وإنّما نتسلّى.. ضيافة أبو الديلم لا تردّ، أنتم كرماء وأصحاب معروف، لكن زوجتي! ماذا أقول!؟..

ـ لا تقل شيئًا! زوجتك خائفة وأنت تتسلّى.. وبماذا؟ بالسكر!؟ يا حيف! أنت يا أبو حنّا، ضيف، ولا يحقّ لي أن أقول ما قلت للضيف، لكنّني لا أسكت على واحدة.. مع ذلك أهلاً وسهلاً.. نتغدّى هنا، في البستان، وبعد الغداء والاستراحة تشرّفوننا في البيت.. هذا ضروريّ. فكّروا أنّ معكم امرأة، والامرأة، بسلامة فهمكم، غير الرّجل، اعتنوا بالأولاد حتّى نعود، لا تقلقوا، أنتم في حرز الله وصونه..

اطمأنّت الوالدة، ارتاحت لفرعونة، سرّها أنّها سلقتهم بلسانها، ذهبت معها باتّجاه البيت، بقيتُ مع الوالد والأخوات. كنت أرى، أسمع، أراقب كلّ شيء صامتًا كعادتي، منزعجًا كالأمّ لأنّ أبي يشرب العرق، مدركًا، بإحساس مسبق، أنّ هذا الأب إذا شرب سكر، وإذا سكر صار كريهًا، يكثر من الكلام، يزعق بالأمّ، يضربها.. آه.. مَنْ الذي «اخترع» العرق!؟

كنّا جياعًا، أو نوشك أن نجوع، وكان المضيف قد أمر أن يُطبخ برغل على الدّجاج، وبانتظار أن ينضج الطبيخ، جلسنا على البساط من دون حركة، لأنّ الأمّ، كما عوّدتنا، هكذا تريد، إضافة إلى الغربة والوحشة اللّتين أحسسنا بهما، وشرع الوالد يكثر من الكلام، يضحك، يناديني كي أذهب إليه فلا أستجيب، وكلّ هذه التصرّفات من علامات السكر، ولأجل أن نأكل جيّدًا من الطعام الذي يُعدّ، نصحنا «الطبّاخ» ألّا نأكل من

التّين اليابس والجوز شيئًا، وأن نحتفظ بهذه «النعمة الهابطة من السماء» علينا، في جيوبنا، لنأكلها في وقت آخر، حين نجوع في العصر، أو في السفر إلى أنطاكية يوم غد، لكنّنا لم نتمالك أنفسنا، فرحنا نقضم خفية هذه التّينة، أو لبّ تلك الجوزة، إلى أن عادت الوالدة، ومعها المرأة الجريئة فرعونة، ونضج الطعام الشهيّ، فوزّعوا علينا الملاعق الخشبيّة، وقدّموا البرغل والدجاج في صينيّة من نحاس، يتصاعد منها البخار. . وقال أبو الديلم: «تفضّلوا يا جماعة. . الأكل على قدر المحبّة». ومن دون تزاحم، كما أوصتنا الوالدة، مددنا أيدينا الصغيرة إلى الطعام ما كنّا نتوقّع أن يكون بمثل هذه الدسامة، وأن نكون معه على مثل هذه الشهيّة، فالزاد الذي معنا في العربة، كان خبزًا وزيتونًا وبعض الفجل!

لكن ماذا بشأن اللّيل؟ أين المبيت ونحن لا ندري في أيّ منزل نستقرّ؟ وهل يبقى أبو الديلم على شهامته، أم يتحوّل، كقاطع طريق، إلى السيرة الأولى، التي اختطّها في هذه الحياة؟ وإذا سلمنا منه، هل نسلم من تحرّش أحد رجاله بنا؟

الوالدة تفكّر خائفة، والوالد الذي سكر ونام، لا يعنيه، هو الذي لا يخاف، من أمر اللّيل المقبل، ما يعني خديِّج، الذي سكر بدوره ونام، لنبقى وحدنا مجتمعين حول الوالدة على البساط، بعد أن غادرتنا فرعونة عائدة إلى منزلها، وغاب أبو الديلم في جهة ما، متفقّدًا رجاله، عائدًا إلى عمله في التهريب وقطع الطريق!

في العصر استيقظ خديِّج وهو يفرك عينيه، صحا من السكر ليجد نفسه في ما يشبه الورطة: أين يبقي العربة بحملها؟ وماذا

بشأن البغل العجوز الذي يرعى على تخم الطريق؟ هل يكفل أبو الديلم بقاء العربة بما تحمل في العراء، أم يأمر بتفريغها ضمانًا لسلامة الأمتعة التي فيها؟ متى يعود أبو الديلم والشمس تنحدر إلى المغيب؟

أيقظ الوالد وتشاور معه، اقتربت الأمّ وهمست للأب بما يخالجها من هواجس، بقينا، نحن الصغار، في وضع قلق، انتقلت عدواه إلينا ممّا يحيط بنا، راحت الشمس تنحدر، منزلقة بملاسة عن صفحة السماء، كأنّما تشدّها إلى أفق الغروب خيوط غير مرئيّة، بقي الأب على حاله من اليقين بأنّ الأمور ستتدبّر، وكي يتخلّص من خماره، داوى نفسه بجرعة «من التي كانت هي الدّاء» . . وفي هذا الجوّ من الضيق، جاء رجل طالبًا منّا أن نذهب معه، قبل أن تهبط الظلمة، إلى بيت الفروعونة، ناصحًا الجميع بترك كلّ شيء في مكانه، دون خشية على العربة، أو البغل، أو الأغراض، لأنّهم في الحفظ، كما يقول أبو الديلم، الذي رتّب لنا، كما يقول الرّجل، مسألة مبيتنا اللّيلة براحة وسلامة.

الوالد اللّامبالي، المطمئن كعادته، وافق فورًا، استمهلنا خديِّج حتّى يتفقّد العربة والأغراض، رجع بعد قليل، والبغل معه، متذرّعًا بأنّ الاعتناء ببغله ضمان لنا، وإلّا بقينا غدًا مقطوعين، وتعذّر علينا أن نواصل السفر. خافت الوالدة من الذهاب مع الرّجل، وخافت البقاء في البرّيّة، وخافت أكثر أن يحدث ما يؤخّر السفر غدًا، بينما كنت، أنا الطفل، أرى، أسمع، أراقب صامتًا، متوقّعًا أن تدعونا الوالدة إلى الصلاة، أقلّه رسم الصليب على صدورنا لتكتب لنا السلامة في الحال

التي نحن فيها.

قبل الغروب تمامًا، مشينا نحو البيت الذي أنزلونا فيه. قال الرّجل الذي أتى بنا: «هذا بيت أبو الديلم»، دخلنا، خلفنا أحذيتنا، وطأنا حصيرة كبيرة، سرنا إلى الجدار المقابل للباب، جلسنا حول الأمّ من دون حراك، جاءت الفرعونة مرحّبة، قالت: «خذوا راحتكم، كونوا كما في بيتكم، وإذا كان البيت ليس على قدر المقام، فإنّ وجودكم فيه خير وبركة» ردّت الوالدة: «البركة في البيت وأصحابه، وألف شكر على الضيافة الكريمة، نحن على سفر، ومن حسن حظّنا أن نبيت اللّيلة عندكم».

فعلاً كان من حسن الحظّ أن نجد مأوى، وأن تجد الأمّ في الفرعونة أختًا، لكنّ حادثًا غير متوقّع أفسد علينا هناءتنا، فقد أفلت البغل من رباطه أمام الباب، أو أنّ أحدًا سطا عليه، وعبثًا حاول خديِّج العثور على مكانه تلك اللّيلة، وزاد في سوء الوضع أنّ أبو الديلم لم يعد، وأنّ أمر رحيلنا، في الصباح التالي، لم يعد مضمونًا، ممّا أقلق الأمّ، حتّى لأشكّ أنّها نامت، بخلاف الوالد الذي راح يشرب، ما إن وُضع أمامنا طبق القشّ، وهو يقول، بين الجرعة والأخرة:

ــ ما أحلى ما يدبّر الله.

والوالدة تنهره قائلة:

ــ الله، سبحانه وتعالى، يدبّر العاقل!

فيردّ الوالد:

ــ وهل أنا، يا بنت الأبالسة، مجنون!؟

كنت شاهدًا على دموع أمّي!

قلق الوالدة أشاع القلق فينا نحن الصغار. الأب، على خلاف الأمّ، كان مطمئنًّا، اطمئنانه ليس عن يقين بأنّ البغل الذي ضاع سيعثرون عليه، بل عن لامبالاة، مصدرها اللّاتفكير، فمادام هناك بيت وطعام ومضيفون، ومادام هناك، خصوصًا، عرق، فإنّ الأمور في رأيه على ما يرام، وشعاره الدائم «الله لا يقطع عباده» رغم أنّنا كنّا مقطوعين، وأنّ البغل الذي أفلت من رباطه، أو سرق ليلاً، سيؤخّر سفرنا، هذا السّفر الذي طال، والذي جعل الوالدة على يأس من الوصول إلى أنطاكية، وأنّ حكاية «شلفة الحجر» كما قالت المضيفة فرعونة، لا أساس لها، فقرب هذه المدينة أو بعدها، لا يتحدّد بالنسبة للخيّال، إلّا أنّه، بالنّسبة إلينا، نحن الذين نسافر مشيًا على الأقدام، فإنّ دون الوصول إلى أنطاكية طلوع الرّوح، وقد كادت أرواحنا تطلع، من شدّة معاكسة القدر، وعدم اكتراث الوالد.

لقد كان بيني وبين الأمّ خيط لا يرى، إلّا أنّه موجود، وهذا الخيط الخفيّ من الشعور المشترك، كان يعذّبني بقدر ما يعذّبها.. كنت أرى إليها، تتعلّق نظراتي بوجهها، بحركات

يديها، بسكناتها ولفتاتها، فأفهم شعورها تمامًا: أقلق إذا قلقت، أحتار إذا احتارت، أخاف إذا خافت، والفارق الوحيد بيننا أنّها تتكلّم، تعبّر عمّا بها، تنفّس عن صدرها، تستريح إذا صعدت الهموم من حشاها إلى شفتيها، بينما أظلّ أنا صامتًا، عارفًا، فاهمًا، مدركًا، ملاحظًا، دون أن أفتح فمي، دون أن تسقط دمعة من عيني، من غير أن أنفّس عن صدري، أو أن أشكو إلى أحد ما بي، فقد كنت مراقبًا، ومن خلال عيني ترتسم، بأنامل صغيرة ولكن ماهرة، لوحات للشقاء الأسود الذي نرسف في أغلاله.

كنت عليلاً، نحيلاً، مصابًا بحساسيّة مرضيّة، وفي دور الشاهد على ما يجري، كانت شهادتي صادقة، أمينة، موضوعيّة إذا صحّت التسمية، لا مبالغة فيها ولا تهويل، ولا تهوين في أمرها أو تمويه، يلفّني، في رصدي لما أرى، سكون مبهم، أرفض من عجز، أو من كبرياء مستترة، أن أرسل نأمة تدلّ على ما بي، أو تكشف عن روحي المجرّحة، ونفسي التي تتناهشها الحسرات لأنّنا كذلك وليس غير ذلك، ولأنّ الأمّ تعاني مرّتين: الأولى من حياة الفلّاح البائسة التي هي حياتنا وحياة أمثالنا، ولأنّ الوالد، مع كلّ ما يحيط بنا من تعس، يتبدّى، ظاهريًّا على الأقلّ، معدم الإحساس، فاقدًا حسّ المسؤوليّة، ليس تجاه الأمّ وحدها، وإنّما تجاهنا نحن فلذات كبده!

كان هذا الوالد، الذي لا أستطيع سبر غوره أنا الصغير، أو النفاذ إلى مشاعره اللّامعلنة، أو تحسّس آلامه التي يفرقها في السّكر، موضع كرهي المتفاوت النِسَب، وإنّي لأنصفه الآن،

وأستغفره لأنّني، في تلك السنّ، كنت أحكم على ما أراه، على ظاهره لا باطنه، على سكره دون دوافعه إلى هذا السكر، وكان الأسى يلمّ بي، بأشدّ ممّا يلمّ بأمّي في الشدائد، وفي حالات تعتعة الخمرة التي تحطّ من قدر أبي، وظروف الجوع والمرض والتشرّد التي نعاني منها، لذلك صار الخال برهوم مثلي الأعلى، وصارت رجولته غريزة لديّ في حبّ الرّجولة الواضحة الآن في رواياتي، وإذا كنت قد أعجبت، إلى حدّ الوله، بالخال برهوم، الذي رأيته عيانًا، فإنّني أعجبت، سماعًا، بخالي رزق الله، شقيق والدتي، الذي كان شجاعًا، كريمًا، غيورًا، محبًّا للنّاس، مدافعًا عنهم، إلّا أنّ الموت اخترمه في عزّ شبابه، إثر ذبحة صدريّة في برّ الأناضول، فكانت الوالدة تذكره، وتبكي عليه، وتترحّم، وتتحدّث إليّ، كما يتحدّث غيره، عن شمائله الحلوة، ومفاداته البالغة.

في ذلك المساء، وبعد ضياع البغل لا ندري أين، استبدّ الخوف بالوالدة، وتاليًا بي، وعافت نفسانا الطعام والماء، فكانت الأمّ تخرج وتدخل، وكلّما عاد خديّج مخفقًا في العثور على البغل، اشتدّ همّها وتمرأى على قسماتها، بينما الوالد يشرب العرق قائلاً:

ـ ياما أحلى ما يدبّر الله.

فتجيبه الوالدة:

ـ الله، سبحانه وتعالى، قال لعبده قم لأقوم معك، وليس نم لأطعمك!

فيضحك بلامبالاة ضحكة منفرة، وهو يقول:

ـ هل ترينني، يا مريانا، نائمًا!

ـ أراك قاعدًا!

ـ وما النفع إذا قمت؟

ـ تبحث مع خديِّج عن البغل.

ـ البغل أكله الضبع!

فتلطم على خدّيها هاتفة من خوف:

ـ يا ويلي إذا كان ما تقوله صحيحًا!

ـ أنا أضحك!

ـ وهل هذا وقت الضحك؟

ـ وهل هذا وقت البكاء؟ وماذا يفيدنا إذا بكينا!؟

ـ وماذا يفيدنا هذا السمّ الذي تشربه؟

ـ ينسينا البغل ومشكلته!

تصيح:

ـ كيف ننسى!؟ كيف ننام!؟

ـ ننام إلى الصباح، والصباح رباح. الضبع، يا بنت الحلال، لا يقارب البغل، يخاف منه.

قالت فرعونة التي دخلت وسمعت الحديث:

ـ عن أيّ ضبع تتحدّثون؟ في هذه المنطقة لا توجد ضباع،

ولو وجدت فإنّها لا تقترب من البيوت، وخديِّج يعرف ذلك، فممّ أنتم خائفون؟ لابدّ أن نعثر على البغل في الصباح، تعرفون ماذا يعني أن يسرق أحد بغلاً مربوطًا أمام منزل أبو الديلم؟ إنّه الموت، الإعدام رميًا بالرّصاص، بيدي هذه (ورفعت يمناها) سأقتل السارق، وسنلاحقه أينما هرب، ونلحق به إلى أنطاكية نفسها، حفظًا لهيبتنا، حفظًا لكرامتنا، أبو الديلم قاطع طريق، ومعه بعض الفلّاحين، بسبب الحاجة، ولكن على مَن يقطعون الطريق؟ على المعتّرين أمثالكم؟ لا! يقطعونها على التجّار، على الأغوات، وعلى الفرنسيين خصوصًا، إنّنا لا نخاف الدرك، وماذا يفعل رجال الدرك معنا؟ يأتون ويذهبون، يملأون بطونهم ويأخذون ما تيسّر، ليس كفرض، لا أحد يستطيع أن يفرض علينا شيئًا، يأخذون ما نسمح به، فإذا ركبوا رؤوسهم قُتلوا، نقتلهم دون أن نسأل عنهم أو عن حكومتهم، أصلاً لا توجد حكومة، كلّ شيء فلتان، ونحن لسنا وحدنا، أبو علي السبع معنا، منطقتنا تابعة له، ورجالنا يهرّبون الدخّان لحسابه، وقد أوصى بكم، وأرسل زلمته خديِّج معكم، وحتّى من دون أن يوصي بكم فأنتم في حمايتنا، أنتم ضيوفنا، ويا مرحبًا بالضيف، أمّا اختفاء البغل فله سبب، وغدًا نعرف السبب، وغدًا، إذا كنتم مصرّين على متابعة السفر، نؤمّنكم حتّى أنطاكية، وأهلاً وسهلاً بكم.

قالت ذلك وصفّقت طالبة حميد الأجير، فلمّا جاء أمرته:

ـ أسرع بالعشاء، الأطفال، يا عيني، أوشكوا أن يناموا، فهل يليق بنا أن نتركهم ينامون بغير عشاء؟ أسرع يا حميد،

هات الطبق الكبير، وبعد ذلك هات العشاء، أنا باقية هنا، مع أختي أمّ الأولاد، وسأتعشّى مع الضيوف، لأنّ أبو الديلم لن يعود إلّا في الصباح، وقد ذهب لشغل ضروريّ، لا يستطيع أحد غيره أن يقوم به.

نظرت إلى الوالدة، وجدتها قد استرخت، اطمأنّت على نحو ما، انبسطت أساريرها، شعرت بالأمان، أقبلت على الفرعونة تشكرها، تقول لها:

ـ الله يستر عليك ويرزقك، الله يجزيك الخير، نحن هنا بحمايتكم، وكرمكم غمرنا، ولطفكم أخجلنا، فلا نعرف كيف نشكركم، وبأيّ طريقة نكافئكم.

ربتت فرعونة على كتف الوالدة، قالت:

ـ لا داعي للشكر، والمكافئ على المعروف هو صاحب المعروف، الله سبحانه وتعالى.. ونحن أهل. الخال برهوم مثل الأخ بالنّسبة إلينا، وبدلاً من الشكر ارتاحوا، استرخوا، لماذا لا تشربين مع زوجك كأس عرق من شغل البيت؟

قال الوالد:

ـ لأنّها لا تعرف أن تكون كيّسة مرّة واحدة.. قبل مجيئك، يا أختي فرعونة، كانت حاطة الحزن بالجرن، خائفة من أن ننقطع عن السفر بعد ضياع البغل، فتأمّلي.

قالت الوالدة:

ـ كنت خائفة من سكرك بأكثر ممّا أنا خائفة من ضياع البغل.

ضحك الوالد وقد بان السكر عليه، تناول زجاجة العرق وصبّ كأسًا أخرى، فصاحت به الأمّ.

ـ كفى يا سليم، وجهك مثل الشوندرة الحمراء من الشرب، ولسانك ثقل حتّى صار مثل الرّفش في فمك، فهل تتبهدل وتبهدلنا معك أمام الناس؟

قالت الفرعونة:

ـ دعيه يا حرمة، إنّه رجل، ورجل مثل كلّ الرّجال، إنّهم لا يتوقّفون عن الشرب حتّى ينطفئوا! وما بيدنا نحن النساء؟

ـ لكنّكم، يا أختي فرعونة، في أرضكم، في بيتكم، بين أهلكم، ونحن غرباء، وعلينا أن نتابع السفر غدًا، فكيف نتابعه إذا صار طينة من شدّة السكر!؟

زعق الوالد وهو متعتع:

ـ أنا أصير طينة يا بنت...

ـ أنت طينة من الآن.. حرام هذا الذي تفعله أمام الناس وأمام أولادك!

ـ أنا أعرف الحرام والحلال أكثر منك.

ـ أنت لا تعرف إلّا الضياع.. آخ كم ضعتَ وضيّعتنا معك.

ـ سدّي بوزك وإلّا..

قال ذلك وقذف الوالدة بالصحن، أصابها في صدرها

فبكت . . رأيتها تبكي، كنت شاهدًا على بكائها، راغبًا أن أبكي مثلها، إلّا أنّ الدمع لا يؤاتي، وكلّ ما فعلته أنّني ذهبت إليها، ونمت في حضنها بغير عشاء!

إلى أنطاكية.. وإن طال السفر!

في الصباح، سألتني أمّي:

ـ لماذا نمت جائعًا يا حبيبي؟

نظرت إليها ولم أجب. ما كنت قادرًا على الجواب، الشاهد الصامت الذي كنته، بقي صامتًا، لأنّه لا يحسن التعبير عن نفسه. كانت عيناه تريان، تراقبان، تشهدان على مأساة العائلة، وذاكرته تخترق الصور للأيّام القادمات، يوم سيكون في وسعه أن يتكلّم، أن يبوح، أن يظهّر لا الصور نفسها، بل بقاياها. ترى استطعت، في سنّ متأخّرة، تظهير بقايا هذه الصور، قبل أن تمّحي من الذّاكرة نهائيًّا!؟

كانت الأمّ ترى إليّ وتتألّم، تتأمّلني في اعتلال صحّتي، في هزالي، في حساسيّتي المرضيّة، مستغربة وضع طفل هو وحيدها، الذي شحدته من السّماء، كيف يذوي، ينعزل، يراقب، بغير حزن، بغير فرح، بغير ولدنة الأطفال الذين في مثل عمره، مقدّرة أنّه يعرف كلّ شيء، يفهم كلّ شيء، من دون أن يسأل عن شيء، من دون أن يعلّق عليه بكلمة فيها تعبير عن

أساه، أو شكوى من هذا الأسى، كتنفيس عن الصدر الذي تخاف ألّا يعود في مقدوره أن يحتمل أكثر!

مع ذلك احتمل صدر هذا الوليد، لم تستطع الرّيح أن تطفئ ذبالة سراجه التي ترتجف في نوسان بين الموت والحياة، والأمّ التي تستشعر، بحنانها الأموميّ، حال ابنها، تحار في العلاج اللازم له، في الدواء القمين بشفائه، أقلّه في وقف تردّيه الصحّي، ولأنّها عاجزة، في الوضع التراجيديّ للعائلة، عن إبعاد طفلها الحسّاس عنه، عن حجب مأساته عن عينيه، ولأنّ هذا الطفل لا يتكلّم، لا يفصح، لا يشكو ممّا به، فقد صدّقت الأمّ ما تقوله هذه المرأة أو تلك، من أنّ الصغير قد مسّه الجنّ، وأنّ الرقي يشفيه، وأنّ هذا الحجاب يبعد عنه الأذى، وتلك الخرزة الزرقاء تحميه من العين، وأنّ قليلاً من ماء هذا العشب أو ذاك يفتح شهيّته للطعام!

في ذلك الصباح تعاونت الأمّ وفرعونة على إطعامه، سقتاه كوبًا من الحليب الساخن، جاءتاه بالتّين اليابس، بالجوز واللّوز، وبقطعة من لحم الخروف الذي ذبح لعشاء العائلة، فأكل قليلاً من كلّ ذلك ثمّ امتنع، أكل بغير شهيّة، لإرضاء الوالدة المسكينة ليس إلّا، لم يكن جائعًا هو الممتلئ قهرًا، بسبب ضياع البغل، وسكر الوالد، وبكاء الأمّ، والوضع الصعب للعائلة المسافرة إلى أنطاكية، من دون أن تصلها لظروف قاهرة.

الوالد الذي لا يستطيع مقاومة الإدمان، شرب العرق حتّى انطفأ سكرًا، ضرب الأمّ بالصحن في صدرها، أوجعها فأبكاها، رأى الطفل كلّ ذلك صامتًا، متضامنًا مع أمّه

بإحساسه، نام في حضنها مقهورًا، وفي الصباح رأى إلى والده بعين الشفقة، لأنّه، في ندمه على ما جرى، كان يستدرّ الشفقة، وكانت هذه حاله أبدًا، يسكر، يفقد وعيه، لا يمون على لسانه، لا يغلّ يده، يضحك بغير داع، يكثر من الكلام، يثرثر، يضرب، وفي الصباح يندم، في لذّة مشبوهة، كأنّما يعيش، في ندمه، لذّة سكره، لذّة النسيان الذي ينشده، هو العاجز عن إنقاذ نفسه وإنقاذ عائلته معه.

كانت الوالدة في تلك الأيّام، مثل الجماهير العربيّة هذه الأيّام، لا تستطيع إلّا أن تغفر، وقد غفرت للوالد ما فعله بها ليلة أمس، وكأنّما أرادت بعفويّة أن أغفر له أنا أيضًا، فقالت لي وهي تقبّلني:

ــ البابا يحبّك كثيرًا يا حنّا!

لم أجب، نظرت إليها، نظرت إلى الوالد، كعادتي، بصمت مبهم، لا هو إلى الغفران ولا الإدانة، محتفظًا بشعور ملتبس، الحيدة فيه واردة وغير واردة، فأنا أحبّ أمّي، لا أخالف لها قولاً، راغبًا، لو كان في وسعي، نسيان ما رأيت من سكر الوالد، ومن ضربه إيّاها، ومن بكائها الذي آلمني، فنمت نوم القهر في حضنها، نوم القلق العاكس لأحلام كابوسيّة، الطفولة الطبيعيّة براء منها، بعيدة عنها، لو أنّ طفولتي كانت كطفولة الذين في سنّي، طبيعيّة في حدّها الأدنى على الأقلّ.

وكما نامت أمّي وهاجس ضياع البغل يلازمها، نمت وهذا الهاجس يعكّر رقادي. ولدى استيقاظنا، في الصباح، كان فكرانا مبلبلين، عبّرت عن ذلك نظرات عيوني في وجوه الذين

حولي، وعبّرت عنه والدتي بلسانها قائلة:

ـ والآن! ماذا بشأن البغل يا سليم؟

ردّ الوالد:

ـ صبّحي ربّك يا حرمة!

ـ صبّحته منذ فتّحت عيوني، دعوته، سبحانه وتعالى، أن يرأف بحالنا، ألّا يقطعنا ونحن في طريق السفر، رسمت الصليب، ابتهلت إلى العذراء مريم، وما تبقّى أن نسعى، أن نخرج ونبحث عن البغل، أن نجده بأيّ شكل، وإلّا ضاع يومنا كلّه.

قال الوالد:

ـ يا فتّاح يا رزّاق! كيف يضيع يومنا وهو لم يبدأ بعد؟ كوني، يا حرمة، صاحبة عقل. من صبر يا مريانا ظفر، ومن لجّ كفر.

ـ أنا صابرة، طول عمري صابرة، لكنّ الوقت يمضي.. أم تريدنا أن نثقل على الناس أكثر ممّا فعلنا؟

ـ تسحبينني بلا إحساس؟ بلا ناموس؟ بلا نخوة؟ تظنّين أنّ ضياع البغل لا يشغل بالي؟ اسغفري ربّك، استغفريه، لا تعكّري صباحي، انتظري حتّى تطلع الشمس، حتّى يفيق الناس، حتّى نجد من نسأله عن البغل اللّعين، كفّي عن الإلحاح قليلاً، العمى! هل فرغ صبرك!

ـ صبري!؟ وهل بقي لي صبر!؟ اقعد أنت، كن «مَرَه» وأنا رجل، ابق في البيت واتركني أخرج وأبحث، طول عمري كنت المَرَه والرّجل في هذا البيت.

خرجت الأمّ للبحث عن البغل، ركضت وراءها، أردت أن أفعل شيئًا لمساعدتها، أن أهرب من البيت حتّى لا يقع نظري على والدي، إلّا أنّ أمّي أمرتني بالبقاء مع أخواتي، طلبت منّي بصوتها الحنون، المجرّح بالعذاب، ألّا أزيد في عذابها، فانكفأت راجعًا إلى الدّاخل، وبعد قليل فوجئت، مع شيء من الارتياح، بدخول المضيفة فرعونة ومعها الأمّ، ومن ورائهما زلمة يحمل طبقًا عليه الإفطار، وضعه في وسط الحصيرة الكبيرة، وعاد إلى الخارج لينقل ما تبقّى من طعام.

نهض الوالد احترامًا، وقفنا، أخواتي وأنا، قالت الأمّ:

ــ لا لزوم، يا أختي فرعونة، لهذا كلّه.. لا أعرف كيف أفعل لأكافئك على هذا المعروف كلّه.

قالت فرعونة:

ــ المكافئ هو الله يا أمّ حنّا.. تفضّلوا كلوا.. أطعمي الأولاد، دعيهم يشبعوا، أنتم على سفر، والطريق طويل، ومسألة البغل ستتأمّن.. أبو الديلم، حين يعود، يدبّر كلّ شيء، أنتم في ضيافته، في حمايته، ونحن، جميعًا، في حماية أبو علي السبع الذي أوصى بكم، وما كنّا، يشهد الله، بحاجة إلى توصية، بابنا مشرّع للضيف، يا هلا بالضيف، يا هلا بالضيوف، وفي كلّ وقت.

شكرها الوالدان، طعمنا كلّنا من الإفطار الشهيّ، وقبل أن ننتهي من الأكل دخل أبو الديلم، جزمته في رجليه، وفي كتفه البارودة، وهو يقول:

ـ لا تؤاخذونا يا جماعة، إن شاء الله لم يحصل تقصير في حقّكم، قالت لي الفرعونة إنّكم مستعجلون، فلماذا العجلة؟ ماذا جرى؟ هل أنتم في خرابة؟ تركتكم مضطرًّا، كنت في عمل ضروريّ، خارج المنطقة، وبالخطأ فكّ واحد من الرّجال البغل وأخذه معنا، لم أنتبه إلّا هذا الصباح، أنا آسف يا جماعة، تابعوا فطوركم، ولكي تأكلوا أكثر سآكل معكم.

قال ذلك أبو الديلم وجلس يأكل، انفرجت أسارير الأمّ، أيقنت أنّنا لن ننقطع، وستتابع طريقنا إلى أنطاكية، ستتابعه في المجهول، والوالدة تخاف المجهول والمعلوم أيضًا، صناعتها الخوف، ولأنّها تخاف كان وجهها ينمّ عن حزن أراقبه بانتباه، متمنّيًا لو أنّ الأمّ، في همّها الدائم لأجلنا، تنسى هذا الهمّ وتفرح قليلاً.

بعد الإفطار جاء خديِّج. كان، ليلة أمس، يسكر مع بعض الفلّاحين، بينما كنّا نظنّه يبحث عن البغل، ولم تكن الوالدة، التي سامحته ظاهريًّا، ترتاح إليه، لا لأنّه كان وقحًا معها ليلة مبيتنا عند الآغا أبو علي السبع، بل لأنّه، أيضًا، يشرب العرق، ويغري الوالد به، والأمّ تدعو، صباح مساء، بالموت على من اخترع العرق، ومن يبيعه، ومن يقطّره في البيوت.

لكنّها، بعد قليل، سرقت، في غفلة من الحزن، فرحة بسيطة، كانت كافية لإسعادي، فقد أعلن أبو الديلم، في شهامة الرّجل الشجاع، أنّه هيّأ لنا مكانًا في خان الحنطة في أنطاكية، وأنّ علينا، ما أن نصل، أن نتوجّه إليه، وأن نقول إنّنا من طرف أبو الديلم فقط، ونبقى في الخان، إلى أن نرحل عن أنطاكية، من دون مقابل.

وكما عند الآغا أبو السبع، لقينا المروءة والكرم عند أبو الديلم، فقد جهّزت لنا الفرعونة زوّادة الطريق، ولم تنس التبغ، والجوز والتّين، ولم يفتها، فوق ذلك، أن تعرض المساعدة المادّيّة، التي اعتذرت عنها الوالدة وهي تنحني لتقبّل يدها.

وقال أبو الديلم ونحن نركب العربة، متّجهين إلى أنطاكية، موجّهًا كلامه إلى خديِّج:

ــ اسمع يا خديِّج، الجماعة أمانة في عنقك، لا تتركهم إلّا بعد الوصول إلى خان الحنطة في أنطاكية، وفي طريق العودة تمرّ عليّ، على الطريق أو في هذا البيت، فإذا لم أكن موجودًا تقول لخالتك الفرعونة عن الذي يجري معكم في الطريق.. مع السّلامة!

قالت الوالدة:

ــ أوصه، يا آغا، ألّا يشرب العرق في الطريق!

قال الآغا:

ــ هذا لا يحتاج إلى وصيّة.. سمعت يا خديِّج؟

هزّ خديِّج رأسه ممتثلاً للأمر، لكنّه، وبالاتفاق مع الوالد، كان يخفي زجاجة عرق بين الثياب في العربة، وما إن قطعنا مسافة من الطريق، حتّى أخرجها، في غفلة من الأمّ، وراح يشرب مع الأب، ويزتّان عتابا وميجانا!

خان الحنطة.. وما أدراك!

البغل العجوز، الذي يجرّ العربة، أضحى أشدّ عجزًا لأنّه لم يسترح كفاية. فهمت هذه الحقيقة منذ أخذ البغل، بغير قوّة على الجرّ، يسير متعثّرًا ساحبًا العربة وراءه في الطريق الوعرة. وقد احتاط خديّج للأمر، فاقترح على الوالدين ألّا نركب، نحن الصغار، العربة، كي يخف الحمل من ناحية، ونستطيع تجاوز الطلعة التي أمامنا من ناحية ثانية. لكنّ الأمّ التي تخاف عليّ، أنا ولدها الصغير النحيل، من السير على قدمي بين أتربة وحصى الطريق، جزّأت اقتراح خديّج، طالبة أن أبقى في العربة، بينما تسير الأخوات وراءها متذرّعة بأنّ وزني مثل وزن الرّيشة، وأنّ وجودي في العربة لن يزيد في ثقل الحمل الذي فيها.. رفضت طبعًا، حملني خديّج ووضعني في العربة، قفزت منها إلى الأرض وأنا مصرّ على المشي، مؤكّدًا للوالدة أنّ هذا أفضل، لأنّني قادر مثل أخواتي، على السير، ولأنّني، إذا سرت، أتسلّى من جهة، وأتفرّج على الطريق وما يحيط بها من أشجار، من جهة ثانية.

كانت حجّتي واهية، فركوب العربة يتيح لي أن أرى المناظر

بشكل أفضل، وأستطيع، من موضعي في مؤخّرتها، أن أسمع ما يقولون، وأن أتحدّث أيضًا، وهذا أضمن للسير بسرعة، عند هبوط العربة من المرتفع الذي أمامنا خصوصًا، إلّا أنّني، في رفضي الركوب، كنت أعبّر عن إحساس بالمشاركة، فمادامت البنت قادرة على المشي، فلماذا لا يمشي الصبي أيضًا!؟ وإذا كانت المسألة، كما في وعيي المبكر، لا تتعلّق بتفضيل الصبي على البنت، فلماذا لا تركب أختي الأكبر منّي، وهي في نحولها، على مثل ما أنا في نحولي!؟ ولئن كان الأمر خارج دائرة التفضيل فإنّ الرّغبة في توكيد الذّات، كانت الطيف المضمر في السريرة، ففي ذلك العمر، ومع رهافة الإحساس، كنت في عنادي، أحيانًا، أرمي إلى الظهور بمظهر من يقوى على فعل ما يفعله الآخرون، وفي لجاجة مبهمة، دافعها إثبات أنّ نحول الجسد لا يشكّل نحولاً في الهمّة، كنت مصرًّا على القيام بأصعب ممّا أنا قادر عليه، رافضًا الشفقة التي تبديها الأمّ، والأهمّ من ذلك، كنت رافضًا هذه الشفقة إذا تمظهرت بالغيريّة الأموميّة، انطلاقًا من أنّ الأمّ تشقى في سبيلنا، وتضحّي لأجلنا، ومقابل ذلك علينا أن نتقاسم معها هذا الشقاء، ونتحمّل بعض هذه التضحية!

إنّ المشاعر الطفوليّة، مهما وعت ما حولها، ومهما تمرّدت على ما حولها، لم تكن بقادرة على التعبير عن نفسها بهذا الوضوح، إلّا أنّني، حين أفكّر، الآن، بالذي كنت أنطوي عليه من أحاسيس وأنا صغير، أجد أنّ شفافية الرّوح تلعب دورها، فقد كنت، في شفافية روحي، أرى، أسمع، أصغي، أنتبه، ومع هذه الملاحظات، خفيّة كانت أم علنيّة، واضحة أم

مبهمة، كنت أتوجّع لحال عائلتي، وأحيل هذا التوجّع إلى حبّ كبير كبير لأمّي، ورثاء، أو استياء، وربّما كره، لوالدي. وإذا كنت على خطأ في هذا الموقف، وعليّ، في كبري، أن أعتذر عنه، فإنّ ذلك لا يلغي ما كان من شعور هو نبت تأثّر بما كان راهنًا في حينه.

البغل العجوز كان تعبًا، وكان من رأي الوالد أن نمكث يومًا آخر في ضيافة الذين كنّا عندهم، ريثما يستريح البغل، إلّا أنّ الوالدة أصرّت على السفر، وسافرنا بناء على إصرارها، وفي تواطؤ غير مقصود ربّما، اتّفق الوالد وخديِّج على أنّ إصرار الأمّ كان خطأً، وأنّنا نعاني في سفرنا نتيجة هذا الخطأ، وأنّ البغل قد يتوقّف عن السير، وقد يموت إذا ما أرغمناه على سحب العربة وهو على حال العجز التي يعاني منها.

قالت الوالدة مدافعة عن نفسها:

ــ لم أكن أدري أنّ هذا سيحدث معنا، ولم يكن مناسبًا البقاء عند أبو الديلم يومًا آخر، على الضيف ألّا يستغلّ كرم مضيفه أكثر ممّا يقتضي الظرف، أو أكثر من اللّازم.

قال خديِّج:

ــ أنت تعرفين، يا أمّ حنّا، أنّ أبو الديلم من الذين يبسط عليهم الآغا أبو علي السبع حمايته، وأنّ رزق الذين كنّا عندهم وفير بفضل الآغا، فما هو الفرق لو أقمنا لديهم يومًا آخر، ريثما يستريح البغل، الذي أخذوه معهم بالغلط؟

أضاف:

ـ الحقّ، في المطاوعة على متابعة السفر، لا يقع عليّ، بل على غيري.

قال الوالد:

ـ ماذا تقصد يا خديِّج؟ هل كان عليّ أن أضربها لأجبرها على البقاء؟

ـ أنا لا أقول تضربها، معاذ الله، ولكن تجبرها على البقاء.

ـ بأيّ طريقة؟

ـ بعدم مطاوعتها على السفر. . الكلمة، في النهاية، للرّجل لا للمرأة!

ردّ الوالد بنزق:

ـ في هذه الحال أنا لست برجل!

ـ فشر من قال هذا، ولكن. .

قالت الأمّ:

ـ لا تصبّ، يا خديِّج، الزيت على النار!

ـ أنا لا أصبّ زيتًا ولا خلًّا. . لكنّني المسؤول عن البغل أوّلاً وأخيرًا.

ـ مادمت مسؤولاً عنه، كان عليك ألّا تتركه يضيع ليلة أمس.

ـ وهل أبقى إلى جانبه، كالحارس على باب السراي؟

ـ وماذا في ذلك؟ حراسة الرزق أفضل من شرب العرق!

ـ أنا ربطته أمام البيت، وبذلك انتهت مسؤوليّتي. . لماذا لم يتفقّده غيري؟

ـ لأنّ غيرك كان يسكر مثلك. . اللّعنة على الذي اخترع العرق. . واللّعنة عليّ لأنّني لم أمنع صاحبك من الشرب. . كلّ الرّجال مثل بعضهم. . تنحلّ ركبهم إذا شمّوا رائحة الزجاجة. . قلت له: يا سليم لا تسكر!

ضاق صدر الوالد، كان يسمع إلى هذا الحوار بشيء من التصبّر، وكان، عند نفسه، غير مسؤول عن البغل، فهو لا يعلم من ربطه، ولا أين هو مربوط، وبعد المشي المضني، وتعب النهار، ماذا لو شرب كأسًا أو كأسين من العرق، حتّى يعرف كيف ينام على الأقلّ!؟ وبعد الذي حدث، وضياع البغل في اللّيل، سوّدت الأمّ عيشه، جعلت الدم يطفر من عينيه، فضربها بالصحن، وندم على ما فعل، لكن بعد فوات الأوان، فماذا تريد منه، بعد أن طاوعها على السفر رغمًا عنه؟ «هذه المرأة لجوجة، الله، سبحانه وتعالى، خلقها على هذه الشاكلة، فكيف أجعلها تكفّ عن لجاجتها؟ كيف أعلّمها الصبر إذا كانت بصلتها محروقة دائمًا؟ الكلام لا ينفع معها، وكذلك الضرب. وها هي تنقّ من جديد، وتلقي باللّوم عليّ، أنا الذي لا علم له ولا خبر، في موضوع ضياع البغل أصلاً، وإذن من الأفضل عدم الأخذ والردّ، وكيلا آخذ وأعطي معها لابدّ من جعل البغل يستريح قليلاً، ونستريح، قليلاً، نحن أيضًا!».

بعد المرتفع الطويل من الطريق، أشرفنا على المنحدر، صار النزول سهلاً، تنفّسنا جرّاء الرّاحة بعد الجهد الذي بذلناه،

ونحن نصعّد في طريق حفرها الشيطان للعباد، كي يكفروا ثمّ يستغفروا. كان البغل يئنّ، ومن منخريه ينفخ لاهثًا، وكنّا نلهث مثله، وقد رفضتُ، بإصرار، أن يحملني والدي أو خديِّج، تابعت السير البطيء ونحن نتسلّق المرتقى، فلمّا بدأنا النزول، كان من الطبيعيّ أن نستشعر الهناءة، غير أنّ اتفاقًا ضمنيًا كان ينعقد، على استخفاء، بيننا جميعًا، وعندما اقترح الوالد أن نتوقّف ليستريح البغل، وافقنا جميعًا أيضًا، وعلى تخم قريب، معشب، تتنضّر خضرته بأشعّة الشمس، استلقى بعضنا، وفي المقدّمة أنا، سائلاً الله أن نبقى حيث نحن، إلى أن تتوقّف دقّات قلبي، متمنّيًا، في سرّي، أن تدع الوالدة خديِّج والوالد يشربان قليلاً من العرق، وأن يسقيا البغل منه، ليدبّ النشاط، وتصبح الرحلة أيسر، فيزول العبوس الذي تتوشّح به الوجوه، جرّاء الجدل عن عجز البغل، وما إذا كنّا أخطأنا أو أصبنا في مواصلة سفرنا اليوم بالذّات.

ما أطيب الرّاحة بعد تعب، ما أعذب الماء بعد عطش، ما ألذّ الطعام بعد جوع، وما أبهج النار وهي تشتعل في القشّ والحطب، ونحن بانتظار أن يغلي الماء، لنصنع الشاي ونأكل.. وعندما انتحى الوالد وخديِّج مكانًا غير بعيد، بين أشجار الدّلب وأدغال الدفلى، لم تقل الوالدة شيئًا، لم تبربر، أو تبرطم، كعادتها، تركتهما يستريحان، يشربان جرعات من العرق، جرعات فقط، بدليل أنّها زعقت، بعد برهة قائلة:

– يكفي يا سليم، تذكّر أنّنا على الطريق بعد، وأنّ علينا أن نصل أنطاكية اليوم!

أجاب الوالد:

ـ نعم! يكفي.. أنت على حقّ يا مريم.

ـ اعترض خديِّج:

ـ صرنا، يا أختي، في أنطاكية تقريبًا، لا تخافي.. اتركينا نبلّ ريقنا الذي جفّ.

ـ لا أصدّق أنّنا صرنا في أنطاكية حتّى أضع رجلي فيها.. هل تعرف خان الحنطة يا خديِّج؟

ـ كما أعرف كفّي!

ـ أنا أسألك عن خان الحنطة لا عن كفّك.

ـ خان الحنطة في أوّل البلد.

ـ ومتى نصل إلى أوّل البلد؟

ـ عندما يستريح البغل!

ـ ومتى يستريح البغل؟

ـ عندما تفرغ هذه الزجاجة!

ـ يا ويلي!

ـ يا ويلي أنا!! أنتم تصلون خان الحنطة فتستريحون، أمّا أنا فعليّ العودة إلى أبو الديلم.

ـ تأكل معنا ثمّ تعود.. ألا يوجد طعام في الخان؟

ـ وهل تحسبينه قصر يلدزلار!؟

ـ ما هو إذن؟

ـ انتظري تري. .

قال خديِّج ذلك واستلقى ضاحكًا، وبعد قليل غنّى موّالاً من الشروقي، فردّ الوالد بردّية من العتابا، بينما الوالدة تضرب كفًّا بكفّ قائلة:

ـ يا خرابي!

خان الحنطة.. وقصر يلدزلار!

كان صوت خديّج جميلاً، يحفظ الكثير من المواويل والعتابا، وكان قمينًا، لو كنّا في مقام آخر، أن يطربنا ويجعلنا نستزيده، وكان صوت الوالد مقبولاً، يسند صوت خديّج، ويردّ عليه بالعتابا.. وحين وضع خديّج يده على خدّه وغنّى أحد مواويله بكت الأمّ، فتأثّرنا لبكائها. كان الموّال، إذا لم تخن الذاكرة، يقول:

علامك يا دهر حطّيت فينا   وشّمتتْ العدى والناس فينا
وحطّينا يا دهر بمركب وسار فينا   من كتر الموج نسّانا الحباب

فردّ عليه الوالد بلازمة عتابا تقول:

دنيا وسيعهْ والمهوّن ربّنا

وقالت الأمّ وهي تبكي:

ــ الدنيا واسعة، ولكنّها ضيّقة علينا.. يا ربّ متى تفرجها علينا؟

قال الأب:

ــ صدق المثل: «جاءت الحزينة لتفرح ما لقت للفرح

مطرح!» ماذا جرى يا مريم، هل يئست من رحمة الله؟

أجابت الأمّ من بين دموعها:

ـ كلّ هذا التشرّد، كلّ هذا العذاب، ولا أيأس!؟

ـ وماذا باليدّ؟

ـ لا شيء.. هيّا، لنتابع السّفر.

قال خديِّج وقد صحا على دموع الأمّ:

ـ يا أختي، يا أمّ حنّا، ما بعد الضيق إلّا الفرج.. قريبًا نكون في أنطاكية، ومكانكم في خان الحنطة معروف، وفيه تستريحون، وتفكّرون بطريقة للخروج من هذه المحنة.

ـ تقصد نفكّر ونحن في اليلْدزلار؟

ـ خان الحنطة هو خان الحنطة.. وكلّها ليلة وتنقضي، ملعون أبو اليلدزلار.

أحببت كلمة يلدزلار.. كان لها وقع خاصّ في الأذن، إلّا أنّني لم أفهم معناها، ولأنّني أرى وأسمع وأراقب دون أن أتكلّم، فقد اكتفيت بترديد الكلمة، سرًّا، حتّى حفظتها، وبعد ذلك استقرّت في الذاكرة، وهناك هجعت، حتّى كبرت فعرفت أنّها تعني «النجوم»، وأنّها اسم أحد القصور السلطانيّة الشهيرة في استنبول، وصارت الآن تطلق على الأمكنة الفخمة، والمطاعم خصوصًا، في دمشق وبيروت وغيرهما.

إذن إلى قصر «اليلدزلار» في أنطاكية، فقد استراح البغل العجوز، واسترحنا جميعًا، وأضحى الطريق أمامنا منبسطًا،

منحدرًا انحدارًا خفيفًا، يجعل العربة تدرج فيه دون كبير عناء، ممّا سمح لنا، نحن الأطفال، بالركوب، والأمّ تغزل الرؤى عن خان الحنطة، وعن حاله التعيسة كما فهمت من خديِّج، والأب يقول لها بصبر حينًا، وانزعاج أو حنق حينًا آخر:

ـ يا مريانا، هي ليلة يا مكاري!

تردّ الأمّ:

ـ المكاري معه قافلة، ولديه تجارة، فماذا لدينا نحن؟

قال خديِّج:

ـ توصية من أبو الديلم!

ـ مرحبًا توصية، إذا كان الخان، كما تقول يا خديِّج، تسرح فيه الجرذان وتمرح، فكيف نأمن على حياتنا؟

أجاب خديِّج ضاحكًا:

ـ بعد النوم!

ـ والأطفال؟

ـ الكبار يحرسون الصغار، وبيد كلّ واحد عصا!

ـ مصيبة! الجرذان مصيبة!

ـ وفي الخانات خصوصًا!

ـ لماذا لا يقتلونها؟ لماذا لا يربّون القطط لاصطيادها؟

ـ وماذا يفعل القطّ مع الجرذون؟ الجرذون، يا أمّ حنّا، أكبر

من القطّ!

ـ إذا كانت الجراذين بهذه الكثرة، وبهذا الحجم، لا ينفع معها إلّا السمّ.

ـ وحتى هذا لا ينفع! إنّها نبع فوّار، وحاشا النبع!

كنت أسمع الحديث، أراقب وجه الأمّ الممسوح بالهمّ، أرى إلى الوالد الذي يبدو غير مكترث، أتصوّر الخان كالجحيم، حتّى دون أن أفقه، تمامًا، معنى الجحيم، أقرّر، بيني وبين نفسي، ألّا أنام، أن أبقى ساهرًا وبيدي عصًا، أحمي أخواتي الصغار، أتذكّر بيتنا الطينيّ في السويديّة، في هذا البيت رأيت الفئران، كانت صغيرة، ماكرة، تركض بسرعة لا تدرك، وكانت لدينا مصائد لها، وقد اصطدنا فأرًا كبيرًا، عجبت لكبره، فأدركت الآن، بالمقارنة، أنّه جرذ، لكنّه ليس بحجم القطّ، ولكي نقتله سكبنا عليه الماء المغلي، كما نفعل بالفئران الصغيرة.

أخيرًا اقتربنا من أنطاكية، بدأت البساتين تقلّ، والأشجار تخفّ، والبيوت المتفرّقة تتراءى، والبغل العجوز غدا نشطًا، لمعرفته، ربّما، أنّنا وصلنا إلى حيث نقصد، وسيستريح بعد قليل، فيأكل عليقه بأمان، من دون أن يعرف مصيره، وما إذا كان سيتابع الرّحلة، أم يعود أدراجه إلى حيث انطلق، فيرتع، هناك، في البساتين، هانئًا ناعم البال.

وما إن اقتربنا من بناء قديم كبير، حتّى قال خديِّج:

ـ هذا هو خان الحنطة! الحمد لله على السلامة يا جماعة.

دخلت العربة من بوّابة الخان الكبيرة، نزلنا منها بمساعدة

خديِّج. دهشت، للوهلة الأول، من كبر البناء، الذي كان على شكل قوس مضموم الطرفين إلّا قليلاً، وفي باحة الخان الكبيرة بركة ماء من دون ماء، على أطرافها بعض الدواب، وفي غرف البناء الكثيرة، رجال ونساء، قال الوالد عنهم إنّهم من الأعراب الوافدين مع أحمالهم ورواحلهم من سهل أرسوز، وأقبل صاحب الخان الحاج قاسم، بقامته الطويلة، وكتفيه العريضتين، وكرشه المندلق أمامه، فوقه حزام جلديّ عريض حائل اللّون، يتّفق بعتقه مع عتق الخان وقدمه، واهتراء بعض جوانب سوره.

سأل: «مَن أنتم؟ ومن أين أنتم قادمون؟ وكم يوم ستبقون في الخان؟» قال الوالد:

ـ نحن من السويديّة. . . وسنسافر بعد ليلة، أو ليلتين على الأكثر!

ـ يعني من المهاجرين، بسبب نكبة دود الحرير؟

ـ نعم! هل نزل في الخان كثير منهم؟

ـ الفقراء نزلوا هنا، أمّا الأغنياء فالله أعلم. . هل معكم أجرة المبيت؟

ردّ الوالد بنزق:

ـ وهل تحسبنا من الشحّاذين؟

قال خديِّج الذي انتهى من فكّ البغل عن العربة، وربطه إلى جانب بركة الماء:

ـ إنّهم ضيوف يا حاج قاسم.. ضيوف أعزّاء، من طرف أبو الديلم، بعلامة كذا.. وأنا أحد رجال أبو علي السبع.

تبدّلت سحنة الحاج قاسم، تمتم مرحّبًا:

ـ أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً بالضيوف.. أنزلوا حمل العربة، الخان خانكم وزيادة، سأعطيكم..

قاطعته الوالدة:

ـ غرفة بعيدة عن الجرذان..

ـ الجرذان؟ معاذ الله.. سأعطيكم غرفة في الطابق الفوقي!

ـ بعيدة عن الجرذان؟

ـ لا يخلو الأمر من جرذون هارب.. ولكنّ الغرفة نظيفة، شرحة، لا وسخ ولا دوابّ مثل الطابق الأرضيّ، اتركوا هذا الأمر عليّ.. يا الله الحقوني..

لحقناه، الأمّ ونحن الأطفال بثيابنا غير البدويّة، ولون بشرتنا الأبيض أو الحنطيّ، بخلاف بشرة الأعراب من سهل أرسوز، وكنّا نحمل بأيدينا الزوّادة، وزجاجات الماء، وبعض الثياب، وقد أثار قدومنا، ومرورنا بالطابق الأرضيّ، انتباه الآخرين، ومن فتحة ضيّقة، صعدنا درجًا حجريًّا إلى الطابق الفوقيّ، حيث فتح لنا الباب بالمفتاح الحاج قاسم، وأدخلنا إلى غرفة نظيفة نسبيًّا، وقال لنا وهو يستدير ليخرج:

ـ الإقامة ببلاش، وسيأتيكم الطعام أيضًا.. توصية أبو الديلم على رأس الرّأس..

قال خديِّج الذي كان يحمل الفراش:

ـ وفوق ذلك توصية أبو علي السبع.. هل تعرف من هي هذه الحرمة؟

ـ من تكون الست بلا صغرة؟

ـ بنت أخت الخال برهوم!

ـ بنت أخت الخال برهوم!؟ الخال برهوم بالذّات!؟ الله الله يا دنيا!! تفضّلوا.. تفضّلوا وأنا أخدمكن بذقني.. الغداء ضيافة منّي.. كباب من عند اللحّام سركيس..

قال الوالد:

ـ ألف شكر يا حاج قاسم، نحن ندفع ثمن الكباب، ويكفي أن ترسل من يحضره لنا..

ـ سيحضر الكباب وكلّ لوازمه، مع الخبز الطازج.. انقلوا أغراضكم، تفقّدوها جيّدًا.

نقلنا أغراضنا... جاء، بعد قليل، طبق الكباب مع الخبز الرّقيق الساخن، أكلنا على جوع، وبشهيّة مفتوحة، وأخرج خديِّج ما تبقّى من زجاجة العرق، فالتمع بريق فرح في عيني الوالد، وشعرنا، لأوّل مرّة، أنّنا في أنطاكية فعلاً، أنطاكية التي سنغادرها في اليوم التالي، وفي سيّارة فورد.. أبو دعسة!

الحاجّ قاسم.. وخان الحنطة!

لم يعد للحاجّ قاسم، صاحب خان الحنطة في أنطاكية، من شاغل سوانا . . «جفنه علّم الغزل، ومن الحبّ ما قتل». لكن حبّ الحاجّ قاسم لم يقتلنا بل أحيانا، فبعد أن جاء الكباب، وأكلناه على جوع، وبعد أن شرب الوالد، ومرافقنا خديِّج الوسيم، كأسين أو أكثر من العرق، طابت نفوسنا جميعًا، وقال خديِّج:

ـ يا أختي أمّ حنّا، بحسب ما يقوله العارفون من أهل العلم، إنّنا، الآن، في مدينة صامدة، نعم! أنطاكية مدينة صامدة، قلبتها الزلازل سبع مرّات، ولا تزال قائمة. . ومَن يدري متى يحدث الزلزال، فيقلبها للمرّة الثامنة!

قالت الأمّ:

ـ فأل الله ولا فألك يا خديِّج، بدل أن تطمئننا تخيفنا!

قال الوالد:

ـ الذي له عمر لا تقتله الشدّة. . أنطاكية مدينة مقدّسة.

قال خديِّج:

ـ العفو يا عمّي سليم، أنطاكية مدينة كافرة، ومن شدّة كفرها عاقبها الله سبع مرّات، والثامنة على الطريق، لكنّنا لا نعرف متى تحدث، فالزلزال علمه عند ربّي، قد يحدث اليوم، أو غدًا، أو بعد عام، وقد لا يحدث أبدًا!

قالت الأمّ:

ـ لن يحدث شيء بإذن الله، وإذا حدث، لا سمح الله، فالسبب هو هذا الزقّوم الذي شربته أنت وأبو حنّا.. هل جئت معنا لتحمينا، أم لتسكر وتخرّف على هواك؟

ـ العرق ليس زقّومًا، ولا يجوز أن نشربه ونذمه، هذا حرام.. ثمّ إنّ العرق عنب، ألا تأكلين العنب؟ وما الفرق بين العنب النيئ أو المطبوخ؟ لا فرق!

ـ سدّ بوزك! تحسبني جاهلة؟ العنب لا يطبخ بل يقطّر.. وعندئذ يصبح زقّومًا، مَن يشربه لا يعرف رأسه من قدميه، ولا يدخل الجنّة أبدًا!

ـ أنت، يا أمّ حنّا، مثل الشيخ رضوان في ضيعتنا، الذي يحشرنا في جهنّم سلفًا، ويذكّرنا صباح مساء بيوم القيامة.. أنا، واسمحي لي بقول ذلك، رجل مؤمن، لكنّني بائس، فقير، أجير، أشرب لأنسى.. وفي هذا عزائي، وعزاء عمّي أبو حنّا أيضًا، فهل تستكثرين العزاء علينا، ولو قليلاً؟ الجنّة وجهنّم على رأسي، لكن لماذا نشمّر ثيابنا قبل أن نصل إلى النهر؟

ـ أنت بندوق يا خديِّج!

ـ مقبولة منك يا أمّ حنّا!

ـ وأنت طويل اللّسان بعد أن تسكر!

ـ أنا طويل اللّسان دون سكر، لكنّني لم أجد من يقصّه لأرتاح.. هل كانت أنطاكية طويلة اللّسان مثلي، حتّى عاقبها الله سبع مرّات، والثامنة على الطريق؟

قال أبو حنّا:

ـ أنت قليل العقل يا خديِّج، لأنّك تجادل امرأة!

ـ عداك العيب!

ـ وأنت تقول: ثور، فتجيبك قليلة العقل هذه: احلبوه!

ـ تمامًا!

ـ أمّا أنطاكية فإنّها مدينة مقدّسة كما قلتُ، وقد عاقبها الله لأنّ أمثال أمّ حنّا هذه كنّ كثيرات فيها!

ـ هذه لم تخطر على بالي.

ـ وسبب قداستها أنّ أوّل كنيسة عرفها البشر بنيت فيها!

ـ هذه معلومة جديدة!

ـ والعرق لا دخْلَ له في موضوع الزلازل، سواء كان مطبوخًا أم مستقطرًا.

ـ كلامك عسل!

ـ والزلازل تحدث كلّ يوم، والله وحده يعلم متى حدث فيها أوّل زلزال!

ـ نِعْم بالله، لكن كتب التاريخ تعْلم كما يقول الشيخ رضوان في ضيعتنا.

ـ كتب التاريخ تعْلم، ولا خلاف على ذلك، لكنّ الزلازل تحدث في فترات متباعدة!

ـ أنا لا أناقش في هذا!

ـ تناقش حول أيّ شيء إذن؟

ـ حول احتمال حدوثها!

ـ ألم تقل، قبل قليل «علينا ألّا نشمّر ثيابنا قبل الوصول إلى النهر؟»

ـ بلى! قلت!

ـ نعيمًا! تقول وتنسى؟ أنت، يا خديِّج، تريد إخافتنا، وأنا لا أخاف، لكن ماذا بشأن العيال؟

ـ نأخذ ونعطي!

ـ الأخذ والعطاء في مسألة الجرذان مفهوم أمرهما، ولكن في مسألة الزلازل، ومتى تحدث، فإنّه أكل خراء!

ـ لا! هذه شتيمة لا تنبلع معي.. ومع ذلك أنت الأكبر سنًّا، وتمون عليّ في كلّ ما تقوله.. أنت وأنا شربنا من هذا الزقّوم كما تقول أمّ حنّا، والزقّوم جرّنا معه.. أخذنا إلى بعيد..

ـ بعيد أو قصير، هذا لا يهمّ..

قالت أمّي:

ـ يهمّ يا سليم، يهمّ.. أنت بعد كأسين صرت طينة، سكرت، نمت، لم تفكّر بي أو بالأولاد، ونحن، في هذا الخان اللّعين، غرباء.. فكّر كيف نخلص من هذه الورطة، ومن الجرذان التي تتكاثر في اللّيل، وكيف نسافر إلى اسكندرونة، مشيًا على الأقدام أيضًا، أم في عربة أو سيّارة..

قاطعها خديِّج قائلاً:

ـ في سيّارة يا خالة.. سيّارة فورد أبو دعسة من آخر طراز.. والحاجّ قاسم، الذي بال في سرواله خوفًا من أبو الديلم، ومن أبو علي السبع، ومن الخال برهوم خصوصًا، سيتدبّر كلّ شيء. أنتِ، يا أمّ حنّا، بنت أخت الخال برهوم، لكنّك، والمعذرة ممّا أقول، لا تعرفين جيّدًا من هو الخال برهوم. إنّه، يا أختي، يخرب بيت الحاجّ قاسم إذا قصّر معكم في شيء.. من الذي حماكم من السويديّة إلى أنطاكية؟ إنّه الخال برهوم، نعم الخال برهوم، الذي يستطيع، إذا غضب، أن يحرم الحاجّ قاسم من رؤية السويديّة، ومن نزول أيّ مسافر في خان الحنطة هذا، سواء كان من الإنس أم الجانّ.. انتظري تري..

كبر الخال برهوم في عيني، صار عملاقًا، صار قادرًا على صنع العجائب، على إخراجنا من خان الحنطة، على إيصالنا إلى اسكندرونة بأمان، وعندما سأكبر، سأشبّه الخال برهوم ببطل «أسطورة العجوز أزرغيل» لغوركي، هذا البطل الذي اسمه دنكو، والذي شقّ صدره، وأخرج قلبه المشتعل، فأنار الغابة المظلمة أمام قبيلته حتّى استطاعت الخروج منها.

نُقر الباب، سمعت نحنحة قبل الدخول. قال الحاجّ قاسم

«يا ساتر!» دخل الغرفة التي كنّا نتجمّع فيها حول الأمّ، ألقى التحيّة وقال:

ـ تأخّرت عليكم يا جماعة بسبب المشاغل، هل ارتحتم قليلاً؟

قال الوالد:

ـ الراحة على قدر المستطاع، وقد كنت كريمًا ولطيفًا جدًّا معنا يا حاجّ قاسم، وكلّ شيء بحسابه.

قال الحاجّ قاسم:

ـ الحساب دفعه الخال برهوم، وله علينا، بعد، أفضال كثيرة.

قال خديِّج:

ـ شرحت هذا لهم يا حاجّ، نوّهت بكرمك ومروءتك وضيافتك، وزدت بأنّ الخال برهوم صديق الحاجّ قاسم، إذن الحاجّ قاسم صديقكم وصديقنا جميعًا.. سأقصّ كلّ هذا على الديلم وأبو علي السبع وحتّى الخال برهوم نفسه.

ـ بلّغهم إذن سلامي، ونحن لم نقم إلّا بالواجب.. وقد جئت مرحّبًا من جديد، وبعد الترحيب أرجوكم أن تقبلوا ضيافتي في العليّة التي فوق، وهي واسعة، شِرْحة، لا جرذان فيها ولا فئران.. أمّا خديِّج فإنّه سيبقى في هذه الغرفة، لأنّه لا مكان له فوق.

قال خديِّج:

ـ والجرذان يا حاجّ قاسم؟

ـ الجرذ الكبير لا يخاف من الجرذان الصغيرة!

ـ هذا ما عندك؟

ـ ألا يرضيك هذا؟ أم تريد إزعاج العائلة التي صارت في عهدتي!؟ ما تبقى أن تنام اللّيلة هنا، وتعود محمّلاً بالسلامات في الغداة.. ولك عندي بعض الهدايا، توصلها بأمان، مع حساب هديّتك المُرْضية إن شاء الله.. ما قولك؟

ـ القول، أوّلاً وأخيرًا، لك، على شرط أن أسهر مع الجماعة، وأعود لأنام في هذه الغرفة.. ما قولكم؟

قال الوالد:

ـ وهل يعقل أن نسهر وحدنا؟

تمتمت الوالدة:

ـ وأن نسكر وحدنا أيضًا!؟

العلّيّة.. وعصا الخال برهوم!

صعدنا إلى العلِّيَّة نستطلع ما فيها، تقدّمنا الوالدُ ليفتح الباب، تأخّرت الأمّ ونحن معها، خوفًا علينا من الجرذان إذا ما كانت فيها، نطّ خديِّج درجات السلّم الحجريّة، سبقنا إلى الدخول، عاين كلّ ما في العلِّيَّة من أشياء، عاد إلينا يقول للأمّ:

ــ هذه العلِّيَّة لائقة بسلاطين بني عثمان أنفسهم. . تفضّلي يا أختي، لا تخافي من شيء. هذه العلِّيَّة، على ما أظنّ، تخصّ الحاجّ قاسم نفسه. . هنا لا جرذان ولا فئران!

ــ وكيف عرفت، بنظرة واحدة؟

ــ نظرة واحدة!؟ سامحك الله. . النظرة الواحدة، من خبير مثلي، بألف نظرة. . قلبت الحصيرة الكبيرة، نظرت في الزوايا، دقّقت في أطراف العتبة، لم أجد بعرة واحدة، ماذا يعني هذا؟ يعني ادخلوها بأمان سالمين. . تفضّلوا!

تفضّلنا، الأمّ تتقدّمنا، ونحن الصغار نتعلّق بأذيالها، وخديِّج يشرح لنا مزايا العلِّيَّة، بإشارات من يديه، قائلاً:

ـ كلّ هذه القاعة الواسعة لكم، من بابها إلى محرابها.. ومعها الحواشي، أي المنتفعات، كما يقول الأوادم. وهذا الحاجّ، الذي لم يحجّ أبدًا على ذمّتي، نِسْوَنْجِي، وهذه العلّيّة مخصّصة لأفعاله الدنيئة، مع هذه أو تلك..

قاطعه الوالد:

ـ بَسْ يا خديِّج! لا تكن واسع الذمّة.. ما لنا نحن وما يفعل الحاجّ قاسم؟ ألا يكفي أنّه أكرمنا، وأعطانا هذه العلّيّة المخصّصة له شخصيًّا؟

ـ لا! ليست له وحده.. إنّها لأكابر القوم أمثالكم.. هذا اللّعين لا تفوته فائتة، ولا تُخفى عليه خافية.. إنّه يحسبها على داير «بارهْ»، يُعطي باليمين ويأخذ ما أعطى باليسار.. إبليس ملفلف!

قالت الأمّ وهي تخلع حذاءها، كيلا تتّسخ الحصيرة:

ـ السيّد المسيح، يتمجّد اسمه، قال: «لا تدينوا لكي لا تدانوا» ونحن لسنا من أكابر القوم الذين تعنيهم، نحن نريد السِتْرة، الحاجّ قاسم سترنا، ستره الله، فماذا نريد أكثر؟ دعنا نر هذه العلّيّة أوّلاً، إنّها، كما قلت، تليق بسلاطين العثمان، وهي مفروشة أحسن الفرش، نظيفة، لطيفة، مهويّة، تشرح الصدر، لماذا لا تتكلّم يا سليم؟

قال الوالد:

ـ كلّ شيء له ثمن إلّا الكلام، دعيه يتكلّم كما يريد.. خديِّج هذا ليس بالرّجل القليل.. إنّه يعرف أكثر منّا، ونحن نسمع

ببلاش. . لكنّنا لا نعضّ اليد التي امتدّت إلينا بالمعروف.

جلسنا، الأمّ والوالد على المصطبات المفروشة، ذات المخدّات المحشوّة، المزركشة، والطراريح الملوّنة، التي في صدر القاعة وجانبيها، ونحن، أخواتي وأنا، على الحصيرة الجديدة، اللّائقة، بينما جلس خديِّج على العتبة، يتنسّم الهواء الرهوَ، بعيدًا عن رائحة الخان الكريهة، المنبعثة من روث الدواب، ومن قذارة الباحة ومَن فيها، وما فيها، من أخلاط الناس، وأحمالهم وأمتعتهم وزفرات التعب والمرض، ومن البِرْكة التي تتوسّط الباحة، وفيها ماء قليل آسن!

تعاون الوالد وخديِّج على نقل أغراضنا إلى العلِّيَّة، طلبت الوالدة إبقاء كلّ غرض على ما هو عليه، مادام تجهيز العلِّيَّة كاملاً، لا تنقصه الفرش والأغطية، ومادمنا سنبيت فيها ليلة واحدة، وبعد ذلك، إذا تيسّرت الأمور، نغادر إلى اسكندرونة، لننزل في مزرعة الخواجة خريستو، الذي اتّفق الوالد معه، في زيارة خاطفة، على أن نكون أجراء فيها.

لفّنا اللّيل بعباءته التي نسجها من كفن النهار، أشعل خديِّج الفوانيس الثلاثة، في صدر القاعة وعلى جانبيها. الضجّة، في باحة الخان، راحت تخفّ تدريجيًّا، النازلون فيه لزموا غرفهم، صهل حصان يغازل فرسًا. . بعد قليل، نهق حمار في طلب عليقه، فقال خديِّج: «إنّ أنكر الأصوات لأصوات الحمير. الحمد لله الذي رزقني صوتًا جميلاً، حنونًا، أغري النساء بي بسببه. . لكن ما الفائدة، مادام لم يغرِ الفتاة التي أحبّ، والتي سأموت لأجلها، أو أرحل عن الضيعة كلِّها، فأهيم في بلاد الله الواسعة؟»

قالت الأمّ:

ـ هل أنت مجنون يا خديِّج؟ وهل تستحقّ فتاة أن تقتل نفسَك لأجلها؟

ـ تستحقّ!

ـ وعلى أيّ شيء تحبّك؟ ألم تقل إنّك فقير، مسكين، على باب الله؟

ـ الله، سبحانه وتعالى، سيفتح لي بابه في يوم من الأيّام.

ـ ألا تتكسّب بصوتك؟

ـ وماذا أتكسّب؟ رغيفًا؟ صحنًا من الطعام؟ شروالاً؟ أنا، يا أمّ حنّا، لا أقبل مثل هذه الأشياء.

ـ والعَرَق؟

ـ هذا نعم! وفي سبيله أغنّي، وأغنّي، أيضًا، لأجل امرأة مات زوجها، ولاتزال صبيّة!

قال الوالد:

ـ يعني أنت نكّاح الحزانى؟

ـ حزرت يا معلّمي! الرّزق، في هذا المجال، واسع وكيّس.. الأرملة، في قضاء الغرض، أفضل من الفتاة.. ماذا أفعل بالفتاة، وشرطها الأوّل الزواج بها؟

ـ والفتاة التي تحبّ؟

ـ هذه نعمة ونقمة، نعمة لأنّها تحبّني، ونقمة لأنّها تذكّرني

بفقري، كلّما «دقّ الكوز بالجرّة» قائلة: «سأكون لك بعد الزواج يا خديِّج، أمّا قبله فلا تحلم حتّى بمسك يدي!»

ـ حبّها مشروط إذن!

ـ مثل غيرها يا عمّي.. حبّ الفتيات، من الغمزة الأولى، شرطه الزواج.. هذه حال ضيْعَتِنا!

قالت الأمّ:

ـ وهذه حال الدّنيا كلّها.. الفتاة الشريفة تريد السترة أوّلاً وأخيرًا.

ـ صدقتِ يا أمّ حنّا، ولكن، يا عمّتي، العريان لا يستر عريانة!

ـ ولا يحبّها في هذه الحال!

ـ الحبّ شيء آخر.. ماذا يفعل الشاب مع الفتاة؟ يحبّها، أحيانًا، رغمًا عنه، ومادام الحبّ أعمى، فإنّها تحبّه هي أيضًا، ثمّ تنزل النازلة: متى نتزوّج؟ كلمة الزواج هذه بغيضة، لكن لابدّ منها، في آخر المطاف.. كما لابدّ، للعجوز الذي يتزوّج صبيّة بمالِه، من نومة الفراش، والفراش يصبح بغيضًا بالنسبة للرّجل العجوز.. لأنّ فيه الامتحان، وكما المؤمن ممتحن، فإنّ الرّجل ممتحن، وعند الامتحان يكرّم المرء أو يُهان، والعجوز يخاف هذا الامتحان، لذلك يكره الفراش، كما أكره أنا الفقر.. الصبيّة، يا معلّمتي، لا تكتفي بالمداعبة، فإذا ابتلاها الله، أو أهلُها الطامعون بالمال، بعجوز في الثمانين أو ما فوق، فماذا تفعل؟ تكتفي بالمداعبة؟ لا تصدّقي هذا

الكلام.. بعد المداعبة هناك الفراش، والويل لها، وله، من الفراش.. تفهمون كلّكم عليّ؟

قال الوالد:

ــ جدًّا! إنّك أخبث، يا خديِّج، وأعرفُ ممّا كنت أظنّ.. العمى! أنا في هذا العمر ولا أعرف هذه الأشياء!

قالت الوالدة مُبَرْطمة لوالدي:

ــ وأنت فيك البركة أيضًا.. أنت رخوٌ أمام الكأس والمرأة، وفعلتك مع الأرملة في السويديّة تذْكر ولا تُعاد، لأنّها عيب في عيب، ولكن ما فائدة الكلام على العيب، مع من لا يتوب عنه؟

نبر الوالد:

ــ اخرسي أنت.. لا تحشري نفسك فيما لا ينفعك.. ألف مرّة قلت لك لا تتدخّلي في كلام الرّجال، وأنت مصرّة على التدخّل.. لو لم تكن محضورة لعلّمتك كيف يكون المعقول وغير المعقول، وما هي عاقبة الثرثرة..

قال خديِّج:

ــ الكلام، يا عمّي سليم، يجرّ الكلام، وعمّتي مريانا انجرّت مع الكلام، فلا تؤاخذها!

ردّت الأمّ بانزعاج:

ــ أنا عمّتك؟ العمى يعميك يا خديِّج إذن.. تحسب نفسك أصغر منّي بكثير؟

قال خديِّج:

ـ الوقعة سوداء من هذه الناحية.. أنت، يا معلّمتي أصغر منّي، ولك يمين على ما أقول.. كيف زلّ لساني الذي يستأهل القطع؟

صاحت الأمّ غاضبة:

ـ أنْ أكون أكبر أو أصغر، فهذا لا دخل لك فيه.. وبدل هذه العلاك فكّر بالعشاء، قبل أن ينْعس الأولادويناموا.. فهمت؟

ـ فهمت تمامًا.. وفكّرت بالعشاء مثلك، وكذلك بما نبلّ به ريقنا، أبو حنّا وأنا، لكنّ المسألة محلولة.. الحاجّ قاسم، ونحن في ضيافته، يعرف أصول الضيافة، وإلّا فإنّ الديلم وأبو علي السبع والخال برهوم وما وجدوا على هذه الأرض.. هذا الحاجّ، هذا العرص، لا يهاب شيئًا مثل العصا، وعصا الذين ذكرتهم طويلة جدًّا.. كوني مطمئنّة!

فلسفة خديِّج.. و«شرف المهنة»!

لم يأكل الوالد معنا، وكذلك فعل خديِّج الذي قام بخدمتنا دون مبرّر، من وجهة نظر الأمّ، أمّا من وجهة نظره هو، فإنّ هذه الخدمة واجب، لا ينبغي التفريط فيه، لأنّنا، كما قال، أمانة في عنقه، والأمانات لا تُخان، إلّا في حالات نادرة، وبسبب من العينين، لامرأة جميلة، نظراتها لا تقاوم، وليست قريبة أو نسيبة، وتنطبق عليها الآية الكريمة: «خائفة الأعين وما تخفي الصدور»، ولأنّني طفل بعد، لم أفهم المراد من كلّ هذا الكلام، ولم يفهمه الوالدان أيضًا، وربّما لا يفهمه، بدقّة، خديِّج نفسه، وإن كان صحيحًا، سيذكّرني، عندما أكبر، بقول المتنبّي «أفسدتْ بيننا الأمانات عيناها، وخانت قلوبهنّ العقول».

فرش خديِّج ورقًا كان مركونًا في زاوية العليّة، حمل طبق الطعام النحاسيّ وضعه فوقه، قال، بعد أن كشف عن الصحون: «بسم الله الرحمن الرحيم» تفضّلوا، وقالت الوالدة، في شبه تمتمة: «بسم الأب والابن والروح القدس» كلوا يا أولاد، فمددنا أيدينا بالملاعق، لنأكل البرغل بالسّمن، وعليه قطع كبيرة، كثيرة، من اللّحم الضان، الذي أخذ خديِّج

يفسّخه، ليسهّل علينا تناوله، محتفظًا للوالد وله بصحن منه، والوالدة تقول، مرّة ومرّة:

ـ لا تتعب نفسك يا خديِّج، يا ابني، فأنا أقوم بما تقوم به، كثّر الله خير الحاجّ قاسم وخيرك، لأنّنا لم نكن نتوقّع كلّ هذا الكرم، وكلّ هذا العشاء الفاخر، وكنت قلقة أن ينام الأولاد من دون عشاء.. لعن الله الشيطان على وساوسه، والحمد لله على كلّ شيء.. إنّني خائفة ألّا نستطيع دفع ثمن هذا كلّه!

ويردّ خديِّج، بينما يداه تواصلان تقطيع اللّحم:

ـ أنت، يا أختي، امرأة طيّبة مباركة، لكنّك، عدم المؤاخذة، تشمّرين ثيابك قبل الوصول إلى النّهر، كما يقول المثل، وكما قلت لك أكثر من مرّة، خلال هذه السفرة!

علّق الوالد:

ـ يسلّم فمك يا خديِّج! قلت لها لا تخافي، لن ينام الأولاد من دون عشاء، لكنّها، منذ غياب الشمس، وهي تنقّ بشكل متواصل، حتّى كدت أخرج من جلدي بسبب نقّها، ويحدث بيننا خصام، بكى من أجله الأولاد.. المرأة، يا خديِّج، هي المرأة، في كلّ مكان وزمان.. إنّها، كما يقولون، ناقصة عقل ودين!

قال خديِّج وهو يمضغ قطعة طيّبة من اللّحم:

ـ أنا معك يا عمّي فيما تقول، سَلْني أنا عن النساء، وعن خوفهنّ، ونقّهنّ، تعرف لماذا لم أتزوّج حتّى الآن.. تعرف ماذا تقول الميجانا؟ أنا أقول لك: «ما أحلى الوما بالوما وما أحلى العزوبيّة».. ولكنّ الزواج مقدور، إذا لم يكن اليوم

فغدًا، أو بعده، أو بعده. المرأة، يا عمّي، مثل القضاء والقدر، لكنّه قدر جميل، في آخر العمر خصوصًا.. نصيحتي أن تُعطي المرأة «أذن من طين وأذن من عجين» لكنّك، أنت، عصبيّ أكثر من اللّزوم أحيانًا، وأختي أمّ حنّا، لا تعرفني كما يجب.. لا تعرف خديِّج الذي يشيل اللّقمة من فم السبع..

قال الوالد:

ــ تكلّم دون أن تأكل.. العمى! راح تشبع قبل أن نبلّ ريقنا!

قال خديِّج:

ــ أنا أمالح أختي أمّ حنّا والأولاد فقط.. حتّى يصير بيننا خبز وملح من جهة، وحتّى أشجّعهم على الأكل من جهة ثانية.. أنت، يا عمّي، صاحب كأس مثلي، وتعرف أنّ الكأس، على معدة فارغة، مضرّ بالصحّة..

سأله الوالد الذي نفد صبره:

ــ أنت أكلت ظهرًا من الكباب حتّى اتّخمت، وتقول إنّ معدتك فارغة!؟

ــ أنا آكل نكايةً بهذا الحاجّ العرص، حتّى يصبح الحساب «رأسه بعبّه» كما يقولون، أمّا إذا كنت تحسب الحاجّ قاسم يطعمنا ويسقينا لوجه الله فأنت مخطئ.. إنّه أبخل من كلب في فمه عظمة.. ويحسبها جيّدًا: عدْ معي على أصابعك: من أين له القنباز الحرير الصافي؟ من العمّ برهوم. ومن أين له الطحين والبرغل والزيت والسمن؟ من الديلم. ومن أين له صناديق الفاكهة؟ من أبو السبع. ومن أين له التتن؟ من أحد قطّاع

الطرق، وما أكثرهم. ومَن يحمي خان الحنطة من هجمات العربان؟ شرحه.. ومَن..

قاطعه الوالد:

ـ بسّ يا خديِّج، والله صار لنا بذمته، بدل أن يكون له بذمّتنا.. أين كنت طول هذه المدّة؟

قالت الوالدة:

ـ يخمخم مثل الخنزير، في كلّ خمّارات أنطاكية!

ردّ خديِّج:

لا يا أختي.. كلّ شيء ولا كلمة خنزير.. هذه مرفوضة، ولو كنتِ في الضيعة لجرى من أجلها الدّم..

قالت الأمّ جابرةً خاطره:

ـ أنا أمازحك يا خديِّج.. أنت مثل الضبع، ولكن أين كنت؟

ـ كلمة الضبع أخفّ، ومع ذلك لا بأس! كنت، يا أمّ حنّا، في أحلى خمّارة في البلد.. أشرب على حساب الأفندي!

ـ الأفندي!؟ أيّ أفندي هذا؟ وهل تعرف الأفنديّة في أنطاكية أيضًا!؟

ـ وأفرض عليهم إتاوات، بناءً على تقديري.. هذا الأفندي يدفع كذا، وذاك الأفندي يدفع كذا.. إلى آخره..

ـ ودفعوا!؟

ـ ألا يسافرون خارج أنطاكية؟ أنا أسألكِ وأنت تجيبين

بنعم أم لا.

ـ يسافرون طبعًا!

ـ إذن عليهم أن يدفعوا.. شرف قاطع الطريق أرفع من شرف أفنديّة أنطاكية.. قاطع الطريق يأخذ من الأفنديّة، من الأغنياء، من أصحاب الكروش، ويعطي مَن؟ الفقراء! هذه هي الحكاية.. أمّا النّساء، زوجات الأفنديّة، فلا أحد يمسّهنّ.. عيب على الرّجل أن يتعرّض لامرأة، فكيف بقاطع الطريق الذي يعتزّ برجولته، التي هي كلّ رأسماله!؟

ـ وإذا أعطت زوجة الأفندي نفسها من تلقاء خاطرها؟

ـ هذا موضوع آخر.. إلّا أن تكون زوجة الأفندي خائفة، أو تعطي عن خوف.. هنا تلعب النخوة دورها.. لكن ليس كلّ الذين يقطعون الطرق أصحاب نخوة! بعضهم أرذال، وهؤلاء حثالة، ينالون جزاءهم.. الديلم قتل بيده واحدًا من هؤلاء الأوغاد، لأنّه تحرّش بامرأة أفندي، وأبو السبع أحبّته زوجة أحد الأفنديّة، لأنّه حماها من أمثالهم، وكان هذا حبًّا حلالاً.. النّساء، يا أمّ حنّا، طبائع، ومن الطبع أن تحبّ المرأة، غنيَّة كانت أم فقيرة، الرّجل الزكرث، الشجاع، الذي لا يهاب الموت.. وأن يحبّها بدوره، وقد يعقد عليها، فتصبح زوجته شرعًا.. أمّا الرعاع، الذين لا شرف لهم، فإنّهم يخطفون.. نعم يخطفون المرأة الجميلة، أو الغنيَّة، ويطلبون فدْيةً.. إنّهم يسيئون إلى شرف المهنة، لذلك يقاصصون، بغير رحمة!

قالت الوالدة:

ـ أنت صادق يا خديِّج، وقد جرى هذا معي، نعم معي بالذّات، فنال الذي تحرّش بي جزاءه..

ـ يجب أن ينال جزاءه.. شرف المهنة قانون، يسري على الجميع، الكبير والصغير، وإلّا صار الوضع فوضى.. أنا مثلاً أجير الديلم، أو أبو السبع، أو الخال برهوم، لا فرق، لكنّني أعرف الأصول: عدم الإخلال بشرف المهنة، وإلّا أعدمت رميًا بالرصاص!

قال الوالد:

ـ وهل قاطع الطريق مهنة؟

ـ نعم يا عمّي، مهنة ونصّ.. إنّها غير السرقة.. السّارق لصّ، ضعيف، جبان، غادر، أمّا قاطع الطريق فإنّه قويّ، جسور، لا ينهب، لا يعتدي على فقير، لا يسبي امرأة، لا يردّ قاصد، يراعي لهفة الملهوف.. آه! نَشَفَ ريقي، والآن نبلّه بكأس، هل تخلط العرق بالماء.. أنا أشربه بغير ماء..

قال الوالد:

ـ الله يخرب بيتك يا خديِّج.. إلحقني بزجاجة العرق، وبعد ذلك يشرب كلّ منّا على كيفه..

شربا، الوالد وخديِّج، وسايرتهم الأمّ بلحسة من كأس هذا، وأخرى من كأس ذاك، كنخب، في صحّة الخال برهوم، النخب الذي لا تردّه الأمّ ولو كان سمًّا، إنّما كانت خائفة أن يسكر الوالد، لذلك قالت:

ـ على مهلك يا سليم.. نحن على سفر، غدًا إن شاء الله، سنفيق باكرًا، لذلك يجب أن تكون صاحيًا!

ـ ومتى سكرْتُ، إن كنّا على سفر أم في بيتنا!؟

ـ دقّت الأمّ على صدرها وقالت:

ـ نسيت؟

قال خديِّج:

ـ اخزوا الشيطان يا جماعة..

وراح، بصوته الحنون، يزتّ عتابا وميجانا.. وأنا، الطفل، أنظر إليه بإعجاب، وأقول في نفسي:

ـ ليت الوالد كان مثله!

أضفت:

ـ في كلّ شيء.. وخصوصًا السُّكْر!

هموم الفقر.. وسلاطة اللّسان!

اختفى خديّج، منذ قفز عن عتبة العلّيَّة، ونزل الدرج راكضًا، لا يدري أحد إلى أين. . ومع اختفائه ساد الصمت، وبدأ مغزل الهواجس عند الأمّ يدور، بينما الوالد، متّكئًا على وسادة، ظلّ محتفظًا بهدوئه، الذي يتبدّى لامبالاة، سواء غاب خديّج أو حضر، وهذه اللّامبالاة بالذّات، كانت طبعًا فيه، وكانت الأمّ تعرفها، فتَتَحَرْقص، وتتعذّب، دون أن تستطيع يومًا أن تبدّل منها، وأن تجعله يقلق، أو يهتمّ، أو يستشعر أيّما مسؤوليّة تجاه العائلة، في أقسى الظروف التي مرّت بها. . إنّه، كعادته، يفكّر بشيء غريب، فما هو؟ ربّما الرّحيل، ومنذ بستان التوت في السويديّة، كان الرّحيل، وهذا ما نخافه جميعًا، لأنّه يتركنا للضياع، هذا الذي كان قدرنا، وسيبقى قدرنا إلى أن أكبر، وأجعل أمّي تشعر بالطمأنينة، لوجودي إلى جانبها، بينما الوالد، المسكون بالحنين إلى الترحال، يسبق في ممارسة البوهيميّة، قبل أن تُعرف هذه كسلوك. . إنّ فيه جزءًا من الفنّان الذي يندفع، دون إرادة منه، إلى التشرّد بحثًا عن شيء مجهول!

سألت الوالدة:

ـ بماذا تفكّر يا سليم؟

بلا شيء، أو بشيء غامض لا أعرفه.. في السويديّة كان البحر، وكانت الشمس، عند الأفق، تغطس في البحر، فماذا وراء هذا الأفق، وأين تذهب الشمس؟

أثار كلام والدي إحساسًا مبهمًا في ذاتي، أنا لا أعرف البحر، ولا الأفق، ولا أين تذهب الشمس حين تغيب، كلّ ما أعرفه أنّ هناك نهارًا وليلاً، وأنّنا ننام في اللّيل ونستيقظ في النهار، وأنّ هناك شتاءً وصيفًا، وأنّني أحبّ الصيف أكثر من الشتاء، وأنّ الشمس الساطعة تبعث الغبطة في نفسي، وأنّ الغيم يحجب هذه الشمس، فلماذا يفعل ذلك؟ ومن أين يأتي الغيم؟ ولماذا يأتي؟ وكيف يتحوّل إلى مطر؟ وأيّ شعور من فرح، يتملّكني لإيقاع المطر؟ ولماذا تقول أمّي: «الشمس مباركة، واللّيل مبارك، رغم أنّه يخيفني، والشتاء يحمل الخير، والصيف يتقبّل هذا الخير، ويحوّله إلى ما ينفع، من الخضار إلى ورق التوت، الذي تتغذّى به دودة القزّ؟ الله، سبحانه وتعالى، رتّب كلّ شيء لأجلنا، لأجل أن نعيش، فلا نموت جوعًا، وبعد الموت تذهب أرواحنا، كحمامات بيضاء، إلى أحضان أبينا إبراهيم في السماء، وهناك تبقى إلى يوم القيامة، وفي يوم القيامة ننهض من القبور كما نهض السيّد المسيح، تمجّد اسمه.. هل فهمت يا حنّا، يا صغيري الحبيب؟»

أهزّ رأسي هزًّا ينطوي على نعم ولا، فهمت ولم أفهم، لكنّني، في كلّ الأحوال، أسعد بكلام أمّي، الذي يثير الأسئلة في ذاتي.

وعندما، ذات مساء، ونحن حول موقد النار، حدّثتني عن توما الشكّاك، تلميذ يسوع الذي لم يصدّق، أنّ يسوع صلب، حتّى يضع إصبعه في مكان المسامير على جسده، وقد كرهت توما هذا، من دون أن أدري لماذا، مع أنّ أمّي نهتني عن كره أحد، لأنّنا جميعًا مخلوقات الباري تعالى، وكلّنا أخوة في هذه الحياة، من دون تفريق بين مسيحي ومسلم، لكنّ الأمر يختلف، بالنّسبة لليهودي، لأنّ اليهود صلبوا المسيح في الجلجلة.

هذا الكلام سأتذكّره عندما أكبر، وعندما أدرك أنّ لا شيء يخرج من لا شيء، بحسب الفلسفة اليونانيّة، وأنّ الفيلسوف ديكارت اقتبس فلسفته في الشكّ، من توما الشكّاك، ولم يخترعها اختراعًا، بل طوّرها تطويرًا، وعنه أخذ الكثيرون هذا المنحى الفلسفي، ومنهم عميد الأدب العربيّ المرحوم طه حسين، في تشكيكه بالأدب الجاهلي، وأنّ مكسيم غوركي، في ذكرياته التي عرّبها عبد المعين الملوحي، وقرأتها في وقت مبكر من عمري، عندما كنت حلّاقًا في حارة القلعة في اللّاذقيّة، قد تعلّم، أي مكسيم غوركي، من رجل اصطدم به في اللّيل المثلج، هذه الحكمة: «الخبز وحده هو الذي يجب علينا أن نسعى إليه، وكلّما قلّت حاجات الإنسان زادت سعادته، وكلّما زادت مطامعه قلّت حرّيّته». وهذه الحكمة ليست لذلك العجوز، بل هي لمفكّر كبير، سبقه في الزمن وفي الفلسفة، وهذا يؤكّد، مرّة أخرى، صدق المقولة الفلسفيّة اليونانيّة «لا شيء يخرج من لا شيء» وأنّ هذا الشيء المأخوذ، المتداول، المشهور، قد كان له أساس عند مَن سبقوا من الناس، ومن الفلاسفة خصوصًا.

تأخّر خديّج في العودة، إلى العلّيَّة التي نحن فيها، في خان الحنطة في أنطاكية، فازدادت هواجس الأمّ، وظلّ الوالد على لامبالاته، يفكّر بما لا أدري كنهه، حتّى قالت أمّي:

ـ ماذا نفعل يا سليم؟

ردّ والدي:

ـ لا نفعل شيئًا!

ـ كيف لا نفعل شيئًا؟

ـ وماذا في يدنا أن نفعل؟

ـ وهل ننام جياعًا؟

ـ أنت لا تفكّرين إلّا ببطنك!

ـ حرام عليك.. أنا لا أفكّر إلّا ببطني!؟ إنّني أفكّر ببطون الأولاد، بينما أنت لا تفكّر إلّا بالشيطان!

ـ الشيطان كان ملاكًا قبل أن يتمرّد فيعاقبه الله، ويجعله عدوًّا للإنسان!

ـ من قال هذا؟

ـ الكتب!

ـ الكتب!؟ هَهْ! ما شاء الله على كتبك التي لا تعرف أن تفكّ حرفًا فيها!

ـ الكتب يقرأها المتعلّمون، وأنا سمعت ما قلت من هؤلاء المتعلّمين، وكفاك ثرثرةً وإلّا..

ـ وإلّا ماذا؟ تضربني!؟

ـ المثل يقول: «إذا لم تضرب المرأة، اضرب خيالها». وأنا لن أضرب خيالك.. سدّي بوزك، دعي هذه اللّيلة تنقضِ على خير، ودعيني في همّي..

ـ وما هو همّك؟ أن تشرب! نعم أن تشرب! أنت لا تفكّر إلّا بنفسك، بينما الأودلا جياع.. هل تنتظر أن يهبط عليهم الطعام من السماء؟

ـ الطعام يهبط دائمًا من السماء.. لا تكفري!

ـ أنا لا أكفر.. الجوع هو الكافر.. الله سبحانه تعالى قال: «قم يا عبدي لأقوم معك، لا نام لأطعمك!»

ـ أنا لا أنام، بل أفكّر..

ـ وماذا ينفع التفكير؟ طول عمرك وأنت تفكّر، طول عمرك عديم الشعور بالمسؤوليّة، تترك الحِمْل عليّ، وترحل لا أدري إلى أين.. يا خوفي أن يكون تفكيرك بالرّحيل، ماذا أفعل في هذه الحال، ونحن في الغربة!؟

ـ نحن لسنا في الغربة، نحن في أنطاكية، وفي خان الحنطة، وفي هذه العلِّيَّة التي لم نحلم بمثلها أبدًا، ويلعن دينك.. أستغفر الله.. كلمة أخرى وأفجّ رأسك، يا بنت القحبة.. أقول لك: اخزي الشيطان، ابلعي لسانك، وإلّا جعلت ليلتك سوداء..

بكت الأمّ، ومن بين دموعها قالت:

ـ تجعل ليلتي سوداء!؟ ومتى كانت ليالي بيضاء، منذ عرفتك!؟ تذكّر ماذا فعلت بنا في السويديّة، وكيف تركتنا للّيل والخوف والجوع والبرد والمطر.. أنت لا تخاف الله..

انتتر الوالد من مجلسه، همّ بضرب الأمّ، بكينا، نحن الأولاد، صرخنا، وقفنا حول الأمّ لنحميها من الضرب، من شراسة الوالد إذا غضب، من صدق ما قالته عنه، والذي كنت أتذكّره طفلاً، وأقف عاجزًا عن دفعه، وكلّ دوري أن أكون شاهدًا عليه، وهذا ما حدث.. وما انطبع في ذهني عمري كلّه..

نُقر الباب فجأة.. كان الموقف دراماتيكيًا، كان، في نظر الأمّ، معيبًا، مسحت دموعها، مسحنا، مثلها، دموعنا، على عجل، وعندما فتح الوالد الباب دُهشنا: كان أجير الحاجّ قاسم يحمل طبقًا نحاسيًّا كبيرًا، تهفّ منه رائحة الطعام، وكان خديِّج وراءه، يحمل شيئًا مصرورًا بالورق، تهلّل له الوالد، وعبستْ الأمّ قائلة:

ـ هذا الزقّوم، مرّة أخرى؟

أضافت:

ـ يا ويلي! من أين ندفع ثمن هذا كلّه؟

قال أجير الحاجّ قاسم:

ـ هذه ضيافة يا أختي.. ضيافة من الحاجّ قاسم، الذي يمسّي عليكم بالخير.. تريدون شيئًا آخر؟

ـ ردّ خديِّج:

ـ سلامتك يا ولد.. انصرف أنت، وقل للحاجّ قاسم: شكرًا! إنّه يعرف الأصول.. يعرف أنّنا من طرف الديلم، وأبو علي السبع، ومن طرف الخال برهوم خصوصًا.. بلّغه ما قلته حرفيًّا.. وزد عليه أنّ الذين نحن من طرفهم لن ينسوا معروفه.. وأنّه يستطيع، الآن، أن ينام مطمئنًّا، وأن يترك باب الخان مفتوحًا.. الذين ذركتهم، يأكلون رأس الأفعى.. ولا يخافون إلّا من الله، سبحانه وتعالى، احفظ كلّ ما قلته، لا تنقص منه، أو تزد عليه، حرفًا، وإلّا جعلتُ نهايتك على يدي.. سمعت!؟

ضحك الوالد من فَشْورة خديِّج، وقالت الأمّ:

ـ العمى على هذه الديباجة! كلمة شكر وردّ غطاها تكفي.. أين كنت يا صاحب اللّسان الطويل؟ كدنا نيأس منك ومن رجوعك.. الأولاد نعسوا ونحن بانتظار الفرج، لماذا هذا الزقّوم؟

هرش خديِّج رأسه المقمّل وردّ قائلاً:

ـ أوّلاً هذا «حليب السباع»، وثانيًا كنت أبحث عن الخمّارات في أنطاكية، وليس عن كنائس بطرس وبولص كما يقول العمّ أبو حنّا، وثالثًا «في الحركة بركة» كما يقول المثل، ورابعًا..

قاطعه الوالد:

ـ كفى! لا رابعًا ولا خامسًا.. اخلع مداسك حتّى لا تتّسخ السجّادة، وتعال إلى جانبي حتّى نتفاهم بهدوء.. من أين جئت بثمن العرق؟ أم أنّك نصبت على الحاجّ قاسم؟

قالت الأمّ:

ـ نصب وحقّ الله.. خديِّج هذا ينصب على الملائكة.. ويا خجلنا من الحاجّ قاسم.. ماذا نقول له غدًا؟

ردّ خديِّج وهو يضحك:

ـ أنتِ، يا أمّ حنّا، لا تقولي شيئًا.. اتركي الكلام لي.. هذا العرص، ليس حاجًّا ولا ما يحزنون.. إنّه يمصُّ دم الناس، ونحن..

قاطعته الأمّ:

ـ نمصّ من دمِهِ.. ألا تخاف الله يا خديِّج؟

ـ أخافه يا أختي، أخافه وكتاب الله، لكنّ الخوف، مع هذا الزنديق، لا ينفع.. سأجعله، غدًا، يدفع أجرة السيّارة إلى اسكندرونة، وأقول له آمرًا:

ـ سجّل، يا حاج قاسم، كلّ شيء على الحساب..

ـ ومَن يدفع الحساب في رأيك؟

ـ ومَن تظنّين؟ ولماذا أنت بنت أخت الخال برهوم؟ ولماذا أنا من طرف الديلم وأبو علي السبع؟.. أنتِ، عدم المؤاخذة، غشيمة يا أمّ حنّا!

خديِّج وأمّي.. والبحر!

نامت أخواتي، بقيت ساهرًا، قلّة النوم هذه، سترافقني حياتي كلّها، ومعها أيضًا كره الشتاء والليل والقلق، وسأعرف، عندما أكبر، أنّ بودلير، الشاعر الفرنسيّ، صاحب ديوان «أزهار الشرّ» يكره القلق، يسمّيه «الوحش المفترس» وأنّ المتنبّي يستشعره، يقول عنه: «على قلق كأنّ الرّيح تحتي / أوجّهها يمينًا أو شمالاً». . لكن بودلير، على تشاؤمه، سيقول «مباركة هي الحياة» قبل أن يموت، وأنّ القلق، محرّض الإبداع والحبّ، والطمأنينة قاتلة الحبّ والإبداع معًا، وهما، أي هذه الثنائيّة، ستكون إحدى أطروحاتي، بعد أن أبدأ الكتابة في الأربعين من عمري!

إنّما، في تلك اللّيلة، ونحن على سَفَرٍ بين السويديّة واسكندرونة، وفي العلِّيَّة في خان الحنطة، كان الإعجاب بشطارة خديِّج قاسمًا مشتركًا بيني وبين الوالدين، وازداد هذا الإعجاب، عندما أحضر خديِّج قليلاً من الزيت، وأصرّ على الوالد أن يشرب منه ملعقة، قبل أن يشرب العرق، فانصاع له الوالد، رغم مشاكسته، وبلع الزيت وهو يتأفّف، فقال خديِّج:

ـ لماذا، يا عمّي سليم، تقرف من زيت الزيتون، وهو غير زيت الخَرْوَع؟

أجاب الوالد وعضلات وجهه تتقلّص:

ـ اللّعنة عليك يا خديِّج، وعلى زيت الزيتون وزيت الخروع. . أنت حمار صغير، وأنا حمار أكبر، لأنّني استجبت لنصيحة أهبل مثلك. . نفسي تلْعي يا ولد، فماذا أفعل؟

ضحك خديِّج وقال:

ـ كلْ قطعة من اللّحم، وبعدها جرعة عرق بغير كَسْرٍ!

خافت الوالدة من التسمّم فقالت:

ـ إذا حدث شيء لعمّك سليم، تكون أنت المسؤول. . لماذا الزيت وبعده العرق بغير كَسْر؟ وما معنى كَسْر العرق؟

قال خديِّج:

ـ على رأسي يا أختي أمّ حنّا! أنا المسؤول أمام الله والكركون (المخفر) والمحكمة نفسها. . هذه وصفة لا يعرفها حتّى الطبيب. تعلّمتها في السجن، من رجل محكوم بالإعدام، من قِبَل الديلم، لأنّه أساء إلى شرف المهنة، وبعد ذلك عفا عنه وأصبح أحد رجاله الشجعان. . عمّي أبو حنّا سيصبح الآن مثل الحصان، ولن يسكر مهما شرب من العرق. . الزيت قبل البدء بالسكر وصفةٌ ثابتة. . أمّا كسر العرق فإنّه معروف عند الجميع، يعني خلطه بالماء. . وهذا الشيء المصرور في هذه الورقة مسحوق الكزبراء اليابسة، تكفي ملعقة صغيرة منه كي يتوقّف

الدُوار في الرّأس، عند السكر ليلاً، أو عند وجع الرّأس والدوخة في الصباح.

لم تصدّق الأمّ ما قاله خديِّج، كان يخرّف في رأيها: «ما نفع زيت الزيتون قبل الشرب؟ وما نفع مسحوق الكزبراء بعده؟ ومَن علّم هذا الولد الأجير عند الديلم أو غيره، أشياء كهذه؟ يقولون: «التجربة أكبر برهان.. علينا أن نجرّب، فإذا صدقت التجربة، ولم يسكر أبو حنّا بسرعة، كعادته، وإذا نفعت الكزبراء في وقف سكره، سأكون ممتنّة لخديِّج طول عمري. سأبوس يده، أشكره، أذكره في كلّ مكان وزمان، بسبب خلاصي، على يده، من محنة كبيرة، محنة سكر زوجي من كأس واحد.. نعم كأس واحد، وعندئذ يضيع عقله، يكثر كلامه، ضحكه، يواصل الشرب حتّى ينطرح أرضًا، في البيت، في الشارع، في الضيعة التي يكون ذهب إليها لبيع المشبّك، ويأتي الأولاد فيأكلون المشبّك، ويأخذون السيْبَة، والصدْر النحاسيّ، وما معه من المصاري، بينما هو، من شدّة السّكر، يتمرّغ في التراب، وأحيانًا كثيرة يبول في سرواله.. وعندما يصحو يندم، يخجل، لا يعود إلى البيت، يتشرّد لا أدري أين، بينما القلق يتناهشنا، الأولاد وأنا.. آه ما أمرّ هذه الذكريات، وآه كم بكيت، وبكى الأطفال، عندما تقع هذه المصائب، وكثيرًا ما تقع!»

حدثت الأعجوبة! الوالد شرب كأسًا وكأسًا ولم يسكر.. الوالدة، رغم هذا، لم تصدّق، لم تؤمن بوصفة خديِّج، قالت لي، عندما كبرت: «شككت، للوهلة الأولى، أنّ زيت

الزيتون، زيت الشجرة المباركة، يمكن أن يحول بين الوالد والسكر من الكأس الأولى، لذلك قلت له: «يكفي يا سليم» فردّ، كعادته: «اخرسي أنت!» خرسْتُ، صبرتُ، وماذا في يدي سوى أن أسكتْ، وأن أصبر؟ لكن خديِّج تدخّل قائلاً بنبرة حسم: «اطمئنّي يا أمّ حنّا، نحن بخير، وسنبقى بخير، والوصفة إيّاها، وغمز لي بعينه، لا تخيب أبدًا، أنتم أمانة في عنقي، وأنا أعرف ما أفعل. الأمانة، في عرفنا، جزء من المهنة، وأنتم ضحكتم في سرّكم، عندما تحدّثت عن شرف المهنة، قلتم: «خديِّج يخرّف!» وأنا استغربت: بنت أخت الخال برهوم، وتشكّ في شرف المهنة! هذا يحدث ويحدث، ولكن لماذا؟ لأنّ الناس يصدّقون الأفنديّة لمجرّد أنّهم أفنديّة، وهؤلاء، ومعهم الحكومة، من المختار إلى أكبر رأس فيها، من مصلحتهم أن يشوّهوا سمعتنا! ضحكتُ، أدرتُ وجهي حتّى لا يرى ابتسامتي وهزئي: قطّاع طرق ويتحدّثون عن السمعة؟! هذا غريب.. السمعة تليق، بل هي ضروريّة للبنت، لكنّها، بالنسبة لقاطع طريق، مسخرة! نعم مسخرة.. تعرف لماذا؟ لأنّ قاطع الطريق يا حنّا، لو كان يخاف على سمعته، ما كان قاطع طريق!» وعندما، في خريف العمر، كتبت روايتي «الشمس في يوم غائم» توقّفت عند عبارة: «أعطني انتصارًا، أعْطِكَ سمعةً حسنةً!» قالها الفتى، أو عازف الإيقاع، أو عازف العود الذي كان يحرّض راقص الخنجر، على دقّ الأرض «ابنة الكلب النائمة، لإيقاظها»!

على أنّ المعلّم، في هذه الرّواية، كان ينبّه الفتى قائلاً: «إذا لم يكن لك من ترقص له بالخنجر فلا ترقص، الإنسان لا يعزف لحاله،

لا يغنّي لحاله، لا ينام مع نفسه. . هناك الآخر، الأخرى، الذي من أجله، من أجلها، يكون الغناء والعزف والرّقص!». وعندما، بعد كأس أو كأسين من العرق، راح خديِّج، بصوته الجميل المفعم بالحنان، بالدفء، يزتّ العتابا والميجانا، ويتبعهما بزفرة، تخرج تنهيدة من قلبه الملتاع، سأله الوالد:

ـ ما بك يا خديِّج؟ هل أنت عاشق؟ هذا الغناء المنطوي على حسرة، لابدّ أن يكون موجّهًا إلى حبيبة، إلى عشيقة، إلى امرأة لا تستطيع الوصول إليها، أم أنا على خطأ!؟

تنهّد خديِّج وقال:

ـ أنت، يا عمّي، على صواب. . هناك فتاة أحبّها، لكنّها فقيرة مثلي، فماذا أفعل؟ قلت لها، ألف مرّة، انتظريني يا فطْمة، إنّني أسعى لجمع مهرك، وعندما يصير لديّ المال سأتزوّجك، ونعيش معًا ولو في كوخ. . لكنّها كانت تجيب: وماذا أفعل بابن عمّي؟ هنا، كما يقولون، عقدة النجّار. . ابن عمّها دميم، مشوّه الخلقة، فسول، لا يسوى بارهْ، لكنّه ابن عمّها والسلام. . والأنكى أنّ هذا الأغبر، يتمهّل في عقد قرانه عليها، لماذا؟ الشيطان وحده يعرف، يريدها، على الأرجح، زوجة ثانية، بعد أن طلّقته زوجته الأولى، أو أنّ والدها، بما له من نفوذ، أرغمه على طلاقها، لأنّه خَرِعٌ. . ويقال، والعهدة على الرّاوي، إنّه لا يستطيع القيام بواجباته الزوجيّة!

قالت الأمّ:

ـ هذا هو الظلم بعينه!

ـ وهذه هي التقاليد بعينها. . ابنة العمّ لابن العمّ، حتّى لو كان أسفل خلق الله، وعنّينًا!

ـ ماذا تقصد بهذه الكلمة «عنّينًا»؟

ردّ الوالد بنزق:

ـ لا تكوني، يا مريانا، كثيرة الغَلَبَة!

ـ وهل السؤال كثْرة غلبة؟

ـ وإذا كانت الكلمة سيّئة، يستحي الرّجل أن يقولها للمرأة؟ غباء، ومع الغباء حشريّة. . لماذا فعلها آدم؟ لماذا أخرج حوّاء من ضلعه؟ لو لم يفعل، لكنّا نحن، معشر الرّجال، بألف خير!

تعقّدت المسألة: الأمّ لا تعرف معنى كلمة عنّين، وخديّج لا يعرف كيف أخرج آدم وحوّاء من ضلعه، وأنا لا أعرف الاثنين، لكنّني فوجئت بما هو أصعب: خطف المرأة، كيف يخطف الرّجل المرأة، وماذا يفعل بها إذا خطفها؟

قال الوالد:

ـ الحكاية، يا خديّج، صارت واضحة، ولا حاجة للشرح. . الولد يسمع ما نقول، ولا لزوم لشرْبكة دماغه، وهو صغير بعد. . قلت لك: «اخطفها!» يعني اخطفها، وبذلك تنقذها من أبيها الطمّاع، وابن عمّها العاجز جنسيًّا، ويكون أجرك، في هذه الحال، دخول الجنّة من أوسع أبوابها. . زِتْ عتابا وميجانا، وأنت، يا حرمة، سدّي بوزك، أو الأحسن خذي لك جرعة معنا. . والصباح رباح كما يقولون.

وضع خديِّج يده على أذنه وصاح:

حطّوا النار في قلبي مشعلايْ / وخبر من عند خلّاني مشعلايْ

وحبيبي إن داس عَ جفني ومشعلايْ / ما ظنّ العين يلحقها أذى!

فصاح الوالد:

ـ آه! آه يا خديِّج!

أضاف خديِّج:

«يا بحر هدّي الموج، فيك حبابنا!»

فردّ معه الوالد: «يا بحر هدّي الموج فيك حبابنا». . وبكت الأمّ، لأنّ البحر أخذ أحد أقربائها . . وكانت تحبّه على ما يبدو!

زيارة مفاجئة.. بعد خبر مرعب!

توقّف خديّج فجأة عن الغناء وقال عنّي:

ـ هذا الولد لا يضرُّ ولا ينفع!

ردّت الوالدة بحدّة:

ـ قطع الله لسانك يا ملعون.. حنّا لا يضرّ ولا ينفع؟

ضحك خديّج وقال:

ـ لا تفهميني خطأ يا أختي.. ما قصدته أنّه يمكن الكلام أمامه دون خوف!

ـ وماذا ستقول، ما شاء الله، حتّى تخاف؟ توقّف عن شرب هذا الزقّوم، لأنّك سكرت وما عدت تمون على كلامك!

ـ أنا أسكر يا أمّ حنّا؟ لولا الخبز والملح ما سكتُّ على هذه الإهانة!

ـ إهانة!؟ قولة الحقّ إهانة؟ نعم! أنت سكرت، وأبو حنّا سكر، وماذا تفعل، يا أهبل، لولا الخبز والملح؟

تدخّل الوالد بنزقه السريع والمعروف قائلاً:

ـ لا تفسدي علينا ليلتنا.. كلمة ثانية وأجعل دمك يسيل.. مئة مرّة قلت لك: «لا تتدخّلي في شغل الرّجال» أنا سكران؟ أستحلفك برحمة أخيك رزق الله: أنا سكران؟

ابتسمت الوالدة وقالت:

ـ شهادة لله، أنت لم تسكر بعد، وهذا بفضل وصفة خديِّج، ولكن هل حنّا لا يضرّ ولا ينفع؟ حنّا، يقْبرني، أفهم منّك ومن خديِّج.. وقد كنّا، كلّنا، مسرورين بالغناء، فلماذا توقّف خديِّج عنه، بعد أن أبكاني من شدّة التأثّر؟

نهض خديِّج وباس رأس الوالدة، زاد فحاول تقبيل يدها، سحبت الوالدة يدها وقالت: «أستغفر الله!» أضافت: «أنا لست قدّيسة حتّى تقبّل يدي. تابع الغناء، وهذا أفضل من الكلام على ابني الوحيد، إنّه ابني الوحيد، هل تفهم ما أقول!؟»

ـ فهمت يا خالة فهمت، ولكنّ الذي سأقوله خطير، بل أخطر ممّا تتصوّرين.. خذي، من فضلك، هذا الكأس من يدي، اشربي بصحّة وحيدك، حفظه الله، وبعد أن أبوح لكم بالسرّ، سأعود إلى الغناء!

أخذت الوالدة الكأس من يد خديِّج، شربت جرعة على شرف الحضور وصحّتهم، تناولت قطعة اللّحم من يد الوالد مبتهجة، مسّدت على رأسي، اقتربَتْ وأنا معها، قالت:

ـ غنِّ يا خديِّج، غناؤك أبكاني، وأريد المزيد.. آه كم هو صوتك حنون!

قال الوالد:

ـ سيغنّي، يا مريانا.. نحن في أوّل اللّيل بعد، فلماذا أنت لجوجة كعادتك؟ خديّج لديه سرّ، وأنا متشوّق لمعرفة هذا السرّ قبل العودة إلى الغناء، ماذا عندك يا خديّج؟

ـ الذي عندي خطير!

ـ هذه فهمناها.. وماذا بعد؟

ـ سمعت، من أحد المسافرين، أنّهم قتلوا، في السويديّة، المستشار الفرنسيّ!.

قالت الوالدة، اللّجوجة بطبعها كما قال الوالد:

ـ وما علاقتنا نحن بهذا العلاكْ؟

ـ علاقتنا، يا أمّ حنّا، قويّة جدًّا.. القاتل هو ديب صرْوين، ويلقّبونه بالنمر، وهو، كما أسمع عنه من الأوادم أفضالكم، نمر حقًّا، رصاصته لا تخيب مرماها، وجرى القتل في اللوشيّة، في عزّ النهار، لكن ديب أفلت من مرافقي المستشار بأعجوبة، إنّه بخفّة النمْس وبطش السّبع، لا يخاف إلّا من ربّه.. يضرب ويختفي، وهذا ليس أوّل فرنسيّ يقتله!

قالت الأم بطبعها اللّجوج:

ـ هذه مسألة فالصو، لا علاقة لنا بها.. حسبت السرّ سرًّا بحقّ وحقيق، فإذا به أكل هواء!

ـ والخال برهوم.. لا علاقة لك به أيضًا؟

قالت الأمّ بلهفة:

ــ يخرب بيتك.. ماذا جرى للخال برهوم يا ذلّي؟ قل بسرعة!

لم يجب خديِّج بسرعة، تناول كأسه بهدوء، أفرغه في جوفه، مسح فمه وشاربه بقفا كفّه، وقال:

ــ أوقفوا الخال برهوم، استجوبوه، سألوه: «أين كنت عند وقوع الحادث؟» أجابهم بهدوئه، ودون أن يرفّ له جفن: «عند المختار مَزّقْ، مختار اللوشيّة، وبحضور فلان وفلان». سألوا المختار والذين كانوا عنده، فشهدوا جميعًا على أنّ الخال برهوم كان معهم، وعندئذ أطلقوا سراحه.

تنهّدت الأمّ وقالت:

ــ الحمد لله، والله زَحَطَ قلبي لرجلي.. هذا خالي وأعرفه!

قال خديِّج:

ــ كلّنا نعرفه جيّدًا، وكلّنا لا نعرفه بتاتًا.. الخال برهوم، فوق شجاعته، داهية.. الذي قتل هو ديب صَرْوين فعلاً، لكنّ الخال برهوم، والكلام بسرِّكم، هو مدبّر القتل.. أرجوكم ولا كلمة عمّا سمعتم منّي.. هنا حفرنا، هنا طمرنا.. والله إذا أفلتت منّا، غَمْزة أو لَمْزة، بحقّ الخال برهوم، كان مصيرنا الموت.. كأسكم!

شرب الوالد وخديِّج النخب بلا مبالاة، شربته الوالدة وهي ترتجف خوفًا.. نظرتُ إليها وأنا أزحف إلى حضنها، فإذا وجهها اصفرّ من الرّعب، خفتُ بدوري، متمنّيًا، في قلبي، ألّا

تبكي، وفعلاً لم تبكِ، وهذا ما أراحني قليلاً.. أمّا خديّج، الذي واتته الفرصة لإفهامنا أنّه يعرف أكثر ممّا نعرف، فقد تابع كلامه قائلاً:

ـ الفرنساوي، مهما يكن أصلُه وفصلُه، عدوُّنا، فهل نرحم عدوّنا؟ في شرعي لا! المسألة، يا جماعة، لم تبدأ بقتل المستشار. قبله قتلنا الكثير من جنوده.. الطريق بين أنطاكية والسويديّة من أوعر الطُرُق، والفرنساوي لا يستطيع قطعها إلّا على الخيل، في وضح النهار.. إنّه يخاف أن يقطعها ليلاً، وهو حَذِرٌ مسلّح، لكنّ حَذَرَه وسلاحَه لا يفيدانه بشيء.. وهذا نصطاده مثل عصفور الدّوري، دون أن يسمع أحد، دون أن يدري أحد، لأنّ الكلمة، أو الوشاية خصوصًا، برصاصة.. ألستم معي؟ طيّب! السكوت علامة الرضى.. اسكتوا ما شئتم، لكنّني، أنا الذي بدأت، سأكمل، من دون أن أسكر، وحياة هذه النعمة (قالها وأمسك رغيفًا بيده) هذا الذي أقوله لا يقال في حال السكر.. «كن مع الله ولا تبالِ». نحن، جميعًا، مع الله، أمّا الفرنساوي مع إبليس.. ما سبب هجرة أمثالكم من السويديّة؟ موت صناعة الحرير الطبيعيّ، موت دودة القزّ، يباس ورق التوت، لأنّه جلب معه الحرير الاصطناعي، وفرضه، بالقوّة، علينا.. الحرير الاصطناعي قتل الحرير الأصليّ، فخرب بيوت الذين يعيشون من تربية دود القزّ، وأنتم منهم، ومع خراب بيوت المرابعين أمثالكم بدأت الهجرة، وأنتم رأيتم بعيونكم، رأيتم الذين هاجروا، مشيًا، قبلكم، والذين سيهاجرون، بالطريقة نفسها، مثلكم، ونحن قطّاع الطرق نساعدهم، لأنّهم أولاد بلدنا، أهلنا.. هل يخون، حتّى

عديم الشرف، أهله وأولاد بلده؟ لا! فكيف ونحن شرفاء، إلّا مع الأفنديّة والفرنساوي؟ اشربوا، اشربوا، انسوا ما حلّ بكم إذا استطعتم، لكنّكم لن تستطيعوا، ونحن مثلكم لا نستطيع.. وكما تضرّر المرابعون في السويديّة، بعد نكبة الحرير، تضرّر تجّار هذا الصنف في أنطاكية وغيرها، فكان أن تعاونوا معكم، معنا، على إحياء صنعة دود القزّ، من دون فائدة حتّى الآن، ومع ذلك فالتعاون قائم، والمساعدة بالمال، من قبل التجّار، مستمرّة، على أمل.. الإنسان من دون أمل لا يعيش.. لنشرب، ونُغَنِّ، حتّى نسلّي أنفسنا، ولو قليلاً..

شرب الوالدان، شرب خديِّج، وددتُ أن أشرب أنا أيضًا، إلّا أنّ الطفل، في مثل عمري، من العيب أن يشرب، رغم أنّني سمعت كلّ ما قاله خديِّج، وتألّمت لما حلّ بنا وبغيرنا، وكرهتُ الفرنساوي. تمنّيتُ، في سرّي أن يموتوا كلّهم، وخفتُ، كما الوالدين، على الخال برهوم، رغم التطمينات بأنّه نجا، وأنّه بخير.

وضع خديِّج يده على خدّه وصاح:

يا جارحة بسيوف لحظك انصفي   كأس الهوى يحلى شرابو انصفي

لو ملّكوكَ ألف جنّة انصفي   الجنّة لِكِ وجهنّم الحمراء لِنا

ردّ الوالدان، وأنا معهم، «الجنّة لِكِ وجهنّم الحمرا لِنا»، وإذا بالباب يقرع: كان هذا الحاجّ قاسم، الذي جاء، بعد سماعه صوت خديِّج الحنون، والمواويل والعتابا، يسهر معنا، ويتفقّد، في الوقت نفسه، أحوالنا، قائلاً:

ـ اعذرونا، يا جماعة، على التقصير إن حصل.

قال الوالد:

ـ كفّيت ووفّيت يا حاجّ، مد الله بعمرك، وزاد في خيرك، وجعل خان الحنطة عامرًا على الدوام.

صاح خديّج «علامَك يا دهَرْ حطّيت فينا.. وخلّيت الناس والفرنساوي يشمتوا فينا!»، وإذا بالباب يقرع قرعًا غير عادي، قرعًا قويًّا، بعصا أو قبضة الكفّ، فلمّا فتحنا صاحت الوالدة:

ـ الخال برهوم!

نهضتْ، بكتْ، ارتمتْ بين ذراعيه، بكى هو أيضًا، وتعجّب الحاضرون من بكائه.. هو «الجبل الذي لا تهزّه ريح» لكنّه جلس، والبندقيّة الجديدة في حضنه، وقال:

ـ أكمل يا خديّج، أكمل يا ابني، والله صوتك الحنون، ورؤية ابنة أختي، أبكياني!

لم يكمل خديّج حياءً، وقف الحاجّ قاسم، وقف الوالد، تعانقوا، شربوا، وقوفًا، كأس الخال برهوم الذي قال:

ـ جئت يا حاجّ ومعي ضيوف: الديلم وأبو علي السبع وآخرون.. هل لنا مكان عندك؟

ـ مكان. الخان كلّه مكانكم! سأفتح العلّيّة الثانية، ويا ألف مرحبا، يا ألف ألف مرحبا بالخال برهوم، سيّد الرّجال، ومعه السباع الذين بيّضوا وجوهنا.

قال الخال برهوم:

ـ إنّهم تحت في أرضيّة الخان، يربطون خيولَهم. . قدّم العَلَف والماءَ للخيول، دعْها تسترحْ، بعد هذا السير في اللّيل، وفي طريق لا يسلكها إلّا الشياطين لشدّة وعورتها. .

أضاف:

ـ انتبه يا حاجّ! لا نريد شوْشَرة. . نحن لا نخاف، لكنّ الحذر ضروريّ، ولا كلمة، أو سؤال، أو جواب، من النازلين في الخان، وعندما تصل عربة الطنبر، يعطيك السّائق ما هو من نصيبك، أمّا الهدايا فتوزّع على أصحابها، حسبما يريد الأخوة الذين معي، وفي هذه اللّيلة بالذّات، لأنّنا سنرحل في عتمة الصباح، كما جئنا في عتمة اللّيل. . لدينا شغل. . هل سمعتم الأخبار؟

قال خديِّج:

ـ سمعناها! سَلْمتْ يد ديب صَرْوين. . والحمد لله على سلامتك. . أنا نازل إلى تحت، أشرف بنفسي على ترتيب الأمور. . لا تشغل نفسك بشيء. . خذ راحتك. . أقوالك أوامر. .

قال الخال برهوم:

ـ عشت يا خديِّج. . وعاش خان الحنطة والحاجّ قاسم. . لكنّني لن أرتاح إلّا بعد أن أتفقّد بنت أختي، أحوالها، أحوال عائلتها، وماذا جرى لهم في الطريق. . وأيّ كلب نبح عليهم!

ـ أنت موجود ويتجاسر كلب، مهما يكن، أن ينبح عليهم؟ لا! هذه مزْحة!

وداعًا أنطاكية.. وداعًا الخال برهوم!

الناقد جورج طرابيشي، الذي كتب كتابين عنّي، هما «الرجولة وعبادة الرّجولة»، و«الرّجولة وايديولوجيّة الرّجولة» قطع الشكّ باليقين.. نعم، أنا في سيرة حياتي، وما تنطوي عليه رواياتي، كرَّسْتُ الرّجولة، وما تنطوي عليه من ألق وشرف، تمثالاً للمروءات، وهذا، في رأيي، ينسجم مع كفاحي في البحر والبرّ، وينسجم، أيضًا، مع رجولة خالي، شقيق أمّي، رزق الله زكّور، الذي مات في الأناضول، خلال سفر برلك، من نزلة صدريّة، وخالي الآخر، ابن عمّ أمّي، برهوم زكّور، الذي كان قاطع طريق، بين السويديّة وأنطاكية، بل كان زعيمًا لقطّاع الطرق، وأكثرهم نبلاً، وأشدّهم حدبًا على الفقراء الذين يجتازون هذا الطريق على الدواب.

ليلة وصوله المفاجئة إلى العلّيّة التي نحن فيها، في خان الحنطة بأنطاكية، وما سبقها من نبأ اغتيال المستشار الفرنسيّ في حيّ اللوشيّة في السويديّة، حسبْناه هاربًا من ملاحقة الدرك الفرنسي، رغم أنّ خديّج كان قد نقل إلينا أنّ الخال برهوم قد اسْتُجْوِبَ وأُطلق سراحه، لوجوده عند المختار يوسف مزّق،

وقت حدوث الاغتيال، وأنّه، في رأي خديِّج، كان العقل المدبّر للاغتيال، وكان ديب صروين اليد المنفّذة لا أكثر.

وقبل أن يختلي بالديلم وأبو علي السبع والآخرين، في العلّيّة الثانية المجاورة لعليّتنا في خان الحنطة، طلب من الحاجّ قاسم، صاحب الخان، وخديِّج الذي رافقنا في السفر، أن يُغلقا الباب علينا، لأنّه سيتفقّد أحوالنا، ويتحدّث إلى بنت أخته التي هي أمّي، والتي ارتمت على صدره باكية منذ دخوله علينا بشكل غير متوقّع، والتصقت به كأنّه الرَحِم الذي خرجت منه.

كان الخال برهوم يلفّ رأسه بكوفيّة، واضعًا بندقيّته في حضنه، بعد أن جلس على السجّادة ومدّ رجليه، ليرتاح من عناء السفر، وبعد أن ناداني إليه، أجلسني على ركبته، مبتسمًا ابتسامته الطيّبة المعهودة، في وجهه الحنطيّ، المستطيل، ذي التقاطيع الحادّة، والأنف واسع الفتحتين، فوق الشارب الأشيب على قليل من السّواد، والعينين البرّاقتين في الرأس الكبير، والجسم غير الضامر، وغير الممتلئ، أو المترهّل مع تقدّم العمر، والصوت الجَهْوَري، اللّائق بالرّجل المهيب، والذي، كما يقال، كان زعيم اللوشيّة، مركز بلدة السويديّة، لا ينازعه في سيادتها منازع.

سأل الوالدين عن الرحلة الصعبة، وعمّا إذا كانت التسهيلات الممكنة هوّنت من صعوبتها، وعمّا إذا كان هناك مَن اعترضنا من قطّاع الطرق، طالبًا من أمّي الكفّ عن البكاء، ومن والدي عدم الإفراط في الشرب، وعن رأيه في الديلم وأبو علي السبع، وهل بدر منهما ما يسوء، فقال الوالد:

لا! لم يقصّرا، وأرغب، ماداما معك، أن أشكرهما.

ردّ الخال برهوم بحسم:

ـ لا وقت، يا سليم، لمثل هذه العواطف.. خديِّج هذا، من أنبه الرّجال وأشجعهم، وله مكانة خاصّة عند الديلم، لذلك أرسله معكم.. هل كنتما تشربان؟

ـ شربنا قليلاً!

ـ أي لم تسكرْ كعادتك؟

ـ معاذ الله يا خال.. نسكر ونحن على سفر؟

ـ تفعلها يا سليم، تفعلها.. ما رأيك يا مريانا؟

ابتسمت الأمّ وقالت:

ـ أنت تعرفه يا خالي، لكنّ خديِّج سقاه، قبل الشرب، ملعقة من الزيت، وأعطاني هذه الكزبراء المدقوقة، لأنّها، كما قال، واحدة بواحدة للخلاص من أثر السكر!

ضحك الخال برهوم ضحكة مجلجلة، وقال:

ـ زيت قبل العرق، وكزبراء بعده؟ شاب شعري ولم أسمع بمثل هذه الوصفات الطبيَّة اللّعينة..

قالت الأمّ:

ـ لكنّها مفيدة يا خالي.. جرّبنا الزيت فنجحت التجربة، سليم لم يسكر كما ترى، رغم لَمَعان شفتيه كالعادة، وحمرة وجهه.. لذلك نحن على ما يرام، وكان خديِّج، بصوته

الحنون، يزتّ العتابا، ونشاركه نحن في الميجانا..

نهض الخال برهوم وقال:

ـ والله لم أسمع بمثل هذه الوصفة، لكنّني سأجرّبها، وأنصح بها.. أكملوا سهرتكم، لا تقلقوا عليّ وعلى من معي.. خديِّج سيبقى معكم، وأنتِ، يا مريانا خذي هذه المصاري، احتفظي بها لوقت الحاجة.. لا تبكي! ربّما كانت هذه آخر مرّة نرى فيها بعضنا.. تعال يا حنّا، يا عين خالك (قال ذلك ورفعني بين يديه) تعال أقبّلك.. هل ستكون مثل خالك رزق الله وخالك برهوم!؟ أبوك له قلب من صخر، لكنّه يسكر، يرحل، يترككم، أمّك وأخواتك وأنت، من دون أن يسأل عمّا سيحلّ بكم بعد رحيله.. أبوك، يا ابن أختي، رخوٌ أمام العرق والمرأة، لكنّه بارع في الحكايات، الله يهديه.. الله يهديك يا سليم، هل تسمعني؟ هل تفهم ما أقول؟ هل تعقل وتكفّ عن السكر والرحيل!؟

كنّا وقوفًا، الأب والأمّ وأنا، كنّا نبكي لهذا الفراق، وكان الخال برهوم يكره البكاء، ساعة الوداع، لذلك قبّلنا، واحدًا واحدًا، وقال:

ـ اذكروني والله معكم!

فتح الباب وغاب في الظلمة، وكان هذا آخر العهد به.. لذلك شهقت الأمّ، شَرِقَتْ بالدّمع، بكيتُ أنا أيضًا، قال الوالد:

ـ كفى بكاءً.. ادعوا له بالسلامة، اطلبو من الله أن يحميه ويحفظه، وهذا أفضل.. «المكتوب على الجبين، لابدّ أن

تراه العين!»

قالت الأمّ:

ـ ولماذا كتب الله على جبيننا كلّ هذا الشقاء؟

انتهرها الأب:

ـ لا تكفري يا مريانا، استغفري ربّك، فوّضي أمرك إليه.. قولي: «الله يسترنا من الأعظم» في ختام صلاتك.. والآن افتحي هذه الورقة.. عدّي ما فيها وضعيها في صدرك.

كان في الورقة ثلاث مجيديّات وبعض «البراغيت» من العملة التركيّة، لأنّ الليرة السوريّة والفرنك والقرش ونصف القرش لم تكن قد وضعت في التداول بعد، وتساءل الأب والأمّ، عمّا إذا كان هذا المبلغ، يكفي لتسديد حسابنا للخان، واستئجار سيارة إلى اسكندرونة، لكنّ خديّج، الذي عاد إلينا بعد وقت قصير قال:

ـ الهدايا وصلت إلى أصحابها، بعد أن أخذ الحاجّ قاسم حصّته الكبيرة من السمن البلدي والزيت والفواكه، وفوقهم خروف.. ناولني يا عمّي سليم زجاجة العرق، وبعدها تسمعون الأخبار الطيّبة..

شرب خديّج من فم الزجاجة.. شرب الوالد، غصّب على الوالدة فشربت، قال خديّج:

ـ الأخبار الطيّبة هي أنّ أعداء الفرنساوي في أنطاكية وصلتهم التعليمات اللّازمة!

سأل الوالد:

ــ من أيّ نوع يا خديِّج!

رفع خديِّج زجاجة العرق إلى فمه، وبعد قطعة لحم، قال وهو يمضغ:

ــ هذا سرّ. . والسرّ لا يعلمه إلّا الله وأصحابه. . رئيس البلديّة الذي سلّمته هديته، حمّلني رسالة إلى العم برهوم من كلمتين: «العائلة بأمَان!» وأنا، قبل عودتي إليكم، بلّغت الرسالة الشفهيّة إلى الخال برهوم فقال: «طيّب!» وأغلق الباب في وجهي. . إنّهم مجتمعون هناك، في العلّيَّة الثانية، المجاورة، والحاجّ قاسم يقوم بالخدمة، أعني يجهّز ما يلزم، أمّا من يحمل الذي جهّزه فرجل غيره، على الأرجح. . أنا كنت أَصلُح لهذه المهمّة، وكذلك للحراسة، وللسهر على الخيل. . أنا أصلح لكلّ المهمّات السرّيّة والعلنيّة، إلّا أنّ الخال برهوم قال بصوته الخشن:

ــ «ابق أنت يا خديِّج مع جماعتي». . وها أنا معكم، بحسب أمر الخال برهوم، وهل أستطيع أن أخالف!؟

قالت الأمّ:

ــ لم نفهم شيئًا يا خديِّج، نسافر غدًا أم لا نسافر؟ ومَن يتدبّر أمورنا؟ أم هذه من الأسرار أيضًا؟

ردّ خديِّج بعَنْطَزة:

ــ من الأسرار طبعًا. . أنا، يا أختي، كما أسمع أقول، والذي سمعته أنّ «العائلة بأمان» فقط لا غير. . أمّا مَن هي هذه العائلة،

وكيف تكون بأمان، ولماذا تكون بأمان، فهذا ليس من شغلي. . اسألي الخال برهوم، يقل لك ما قلت، من دون زيادة أو نقصان!

ـ الخال برهوم ودّعنا نهائيًا، ولن نراه إلّا إذا أراد الله.

ـ لا تكوني لجوجة إذن، كما قال عمّي سليم. . الصباح رباح، اطمئنّي، وتصبحون كلّكم على خير. .

ـ نحن لن ننام، ابقَ معنا يا خديِّج!

ـ ولماذا لا تنامون؟ هل عاودتك الوساوس؟ ناموا بأمان. . أمّا أنا فلديّ شغل، سأدرس، مع هذا الزّفْت الحاجّ قاسم، منافذَ ومخارجَ الخان، سأسهر طول اللّيل، دون أن يغمض لي جفن، وأراقب كلّ شيء بانتباه!

ـ ومَن كلّفك بهذا كلّه؟

ـ أنا كلّفت نفسي. . ألا يكفي هذا. وفوقه نحن في خان واحد، صوتٌ واحدٌ وأكون عندكم. . أنتم. .

قال الوالد:

ـ كفى يا خديِّج، تصبح على خير. .

هبط خديِّج الدرجات قفزًا، أطفأ الوالد الفوانيس، بعد أن مدّت الوالدة فراشًا له، وفراشًا لي ولها، وقالت وأنا أعانقها:

ـ نم يا حبيبي نم. . خديِّج هذا ثرثار، لا تصدّق كلّ ما قاله. . نحن بخير، والدنيا أمان!

فتحت عينيّ فإذا الشّمس مشرقة! وإذا الوالد والوالدة

يشربان الشاي، وبعد قليل جاء الفطور.. وكان غنيًا. وإذا خديِّج يدخل علينا، يشرب الشاي ويفطر معنا، وبعد أن مسح فمه وشاربه قال:

ــ رحلوا بحفظه وصونه.. وأنتم سترحلون أيضًا، بحفظه وصونه، فاستعدّوا.. السيّارة ستكون على باب الخان بعد ساعة على الأكثر، وسأكون في وداعكم.. أحببتكم والله، وكان بيننا خبز وملح..

قالت الوالدة مازحة:

ــ وعرق!

ــ تمامًا..

ضحكنا جميعًا وطويلاً، في الوقت الذي كان الحاجّ قاسم يتخطّى العتبة، مصبّحًا بالخير، متهلّلاً لأنّ اللّيلة مرّت على خير، كما قال الوالد، بعد دردشة قصيرة معه.. إلّا أنّ الوالدة كدّرت الحاجّ قاسم لأنّها سألته: «ما هو حسابنا يا حاجّ؟»

ــ حسابكم!؟ قال، أيّ حساب هذا؟ والله ثمّ والله، ما كنت أنتظر غلطة كهذه.. الحساب وصل، وفوقه حبّة مسْك.. الحساب لا يكون بين الضيوف والمضيف.. أنتم ضيوفي، وقد جهّزت لكم زوّادة السفر، ويا خجلي إذا كنت قد قصّرت.. على كلّ حال تفضّلوا بالنزول، وعلى مهل، والأولاد، في الخان، ينقلون أغراضكم إلى السيّارة.. وفعلاً نقلوها، وتفقّدت الأمّ كلّ شيء، ثمّ عانق الوالد الحاجّ قاسم وشكره، وعانق خديِّج بحرارة وقبّله.. وصافحت الأمّ الجميع، وعندما

انطلقت بنا السيّارة بدأ التلويح بالأيدي، إلى أن غابت بنا عن الأنظار، في طريقها السالك إلى اسكندرونة. . وبعد مسافة من أنطاكية قال السائق:

ـ هل سمعتم؟ قُتل مديرُ الناحية المتعاون مع الفرنساوي. .

أضاف:

ـ لا تخافوا، طريقنا هذا سالم، وأنا مسلّح. . هذه سيّارة رئيس البلديّة وأنا سائقه!

كانت سيّارة فورد أبو دعْسة، وليس لها صندوق للأغراض، إنّما سرير من أسياخ حديديّة وضعنا عليها الفرش والأغطية، وباقي الحاجيّات حشرناها في السيّارة معنا، وقال الوالد مداعبًا السّائق:

ـ رئيس بلديّة يملك سيّارة؟

ـ طبعًا! ومن حرٍّ ماله. . إنّه غنيّ، وعدوّ عنيد للفرنساوي، لكن بالسرّ، احفظوا السرّ!

قال الوالد:

ـ طبعًا سنحفظ السرّ. . لكنّنا سنكون بعيدين. . في اسكندرونة. . ثمّ الله يعلم!

وفعلاً كان الله وحده يعلم!

عنوان المؤلّف:

دمشق ص.ب. ٣٠٣٩٣ هاتف ٥١١٥٣٢٢

DAMASCUS - SYRIA P.O. BOXE 30393 TL: 5115 322

الفهرس

مؤلّفات حنّا مينة

علي مولا

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف ريم الجندي



عالم المعرفة
شرف قاطع طريق
B5 رواية
S.P275
1 2 3 7 0 3